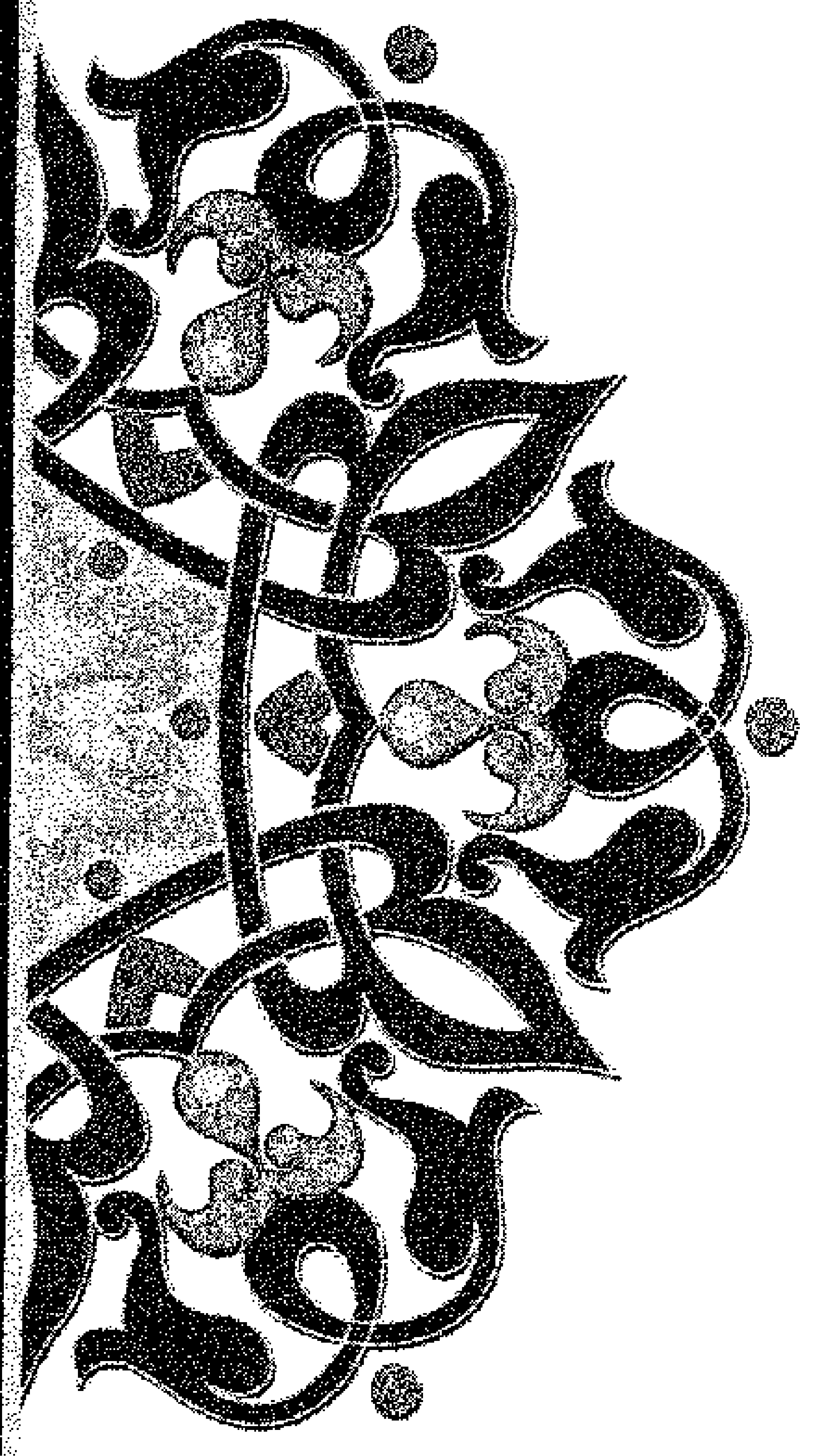
جمال بدوى



الفاطمية

دولة التفاريح والتباريح

دار الشروق

الفاطمية

دولة التفاريح والتباريح

الطبعة الأولـــى
لـدار الشـــروق
١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ
رابعة العدوية ـ مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما ـ تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكـــس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكتروني: email: dar@shorouk, com.

جمال بدوى

الفاطمية
دولة التفاريح والتباريح

دار الشروق

مقـــدمـــة

محطـــــــات

ليس هذا الكتاب سجلا لتاريخ الدولة الفاطمية التى حكمت مصر زهاء قرنين، فهناك مئات الكتب التى وضعها المؤرخون ـ قديما وحديثا ـ فى تاريخ الفـواطم، ولكنه مـحطات توقـفت عندها وأنا أصـاحب هذه الدولة من بدايتـها إلى نهـايتـهـا . وتركت فى الوجدان المصرى آثارا لا تزال مـاثلة فى الثقافة الشعبية، لعل أسوأها وأشدها تهافتا ذكريات الكنافة والقطايف والفوانيس التى تقفز إلى صدر الاهتمامات كلما أهل شهر رمضان، ويغفل الناس عن الدعاوى الدينية والمذهبية التى جاء بها الفـاطميـون على أسنة الرمـاح، وفرضـوها على الشـعب بمقـتضى حق الفـتح الذى يعطى للدولة الغالبة سلطة تغيير الموروث الثقافى والاجتمـاعى، وما كان للفاطميين أن ينجحوا فى غلبة مصر لولا ضعف النظام الحاكم، وغفلة الشعب المحكوم، والفراغ الذى أتاح للعملاء والطابور الخامس أن يمهد الأرض للجيش القادم ليـمـلأ الأرض عـدلا بعـد أن ملئت جـورا . . فـامـتـلأت الأرض خللا واضطرابا وإلحادا . .

** إنه درس لا ينبغى أن ننساه .

وهو أن التهاون فى الدفاع الوطنى، والاستقلال الذاتى يؤدى إلى ضياع الوطن . . وخضوعه لكل طارق مشبوه .

جمـال بـدوى

مصر الجديدة ـ يناير ٢٠٠٤



التفاريح والتباريح

ارتبط تاريخ الدولة الفاطمية في أذهان المصريين المحدثين بالأفراح والليالى الملاح والاحتفالات والولائم وأطايب الطعام والحلوى، ولا يذكر اسم الفاطميين إلا ويتذكر الناس القطايف والكنافة والخشاف وطبق عاشورة والمسحراتي وفوانيس رمضان ومواكب الأطفال وهم يطوفون الحوارى ويرددون كلمات الأغنية المشهورة: وحوى يا وحوى . .

وكأنما كان الفاطميون أهل تفاريح فأرادوا أن يجعلوا من أيام المصريين سلسلة متصلة من الاحتفالات والأعياد . . فإليهم ترجع ظاهرة الاحتفال بالمناسبات الدينية مثل ذكرى المولد النبوى وليلة الإسراء والمعراج وليلة النصف من شعبان، وكان المصريون، قبل الغزو الفاطمى، مثل سائر الشعوب الإسلامية لا يقيمون لهذه المناسبات طقوسا أو مهرجانات . . وإذا احتفلوا بها ففى إطار الوقار الذى تفرضه طبيعة المناسبة الدينية مثل تلاوة القرآن أو ترديد الأدعيات . فلما جاء الفاطميون جعلوا منها فرصة للتفاريح وخرجوا بها من المسجد إلى الشارع واصطنعوا لكل مناسبة نوعًا خاصًا من الحلوى، وكان الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم ووجوه دولتهم يحرصون على حضور هذه الاحتفالات فى الجامع الأزهر حتى

يضفوا عليها اهتماما رسميا ولكى يقلدهم من هم أدنى منهم منزلة، بل ابتدع الفاطميون مناسبات لم يكن للمصريين بها سابق احتفال مثل يوم عاشوراء وهو اليوم العاشر من شهر المحرم الذى يصادف ذكرى مصرع الإمام الحسين رضى الله عنه، فى كربلاء، ومع أن الشيعة جعلوا من هذه المناسبة مأتما وذكرى لاجترار الحزن والأسى، فقد جعل المصريون منها مناسبة للاستمتاع على طريقتهم بطبق خاص من الحلوى أطلقوا عليه اسم المناسبة نفسها. ولم يسمحوا لأنفسهم بتعذيب أنفسهم كما يفعل الشيعة فى كل مكان تكفيرا عن جريمة التخلى عن الحسين.

لم يكن الفاطميون أهل فرح ومرح ولهو وعبث، كما يتبادر إلى الذهن، وكان المعز لدين الله رجل دولة من الطراز الأول، وإلا ما كان له أن يقيم هذه الإمبراطورية الشيعية التى انطلقت من المغرب إلى مصر ثم الشام وبسطت نفوذها على أرض الحرمين الشريفين، وتردد ذكرها فى بعض الأوقات على منابر بغداد. وزاحمت دولة الإسلام السنية التى ورثت ملك العباسيين، وطمحت الفاطمية إلى إزالة هذا الملك الكبير لتقيم على انقاضه دولة الشيعة ويتحقق الحلم الذى ظل يراود أحلام الفرق الشيعية على امتداد القرون والأعوام . . نعم. . لم تكن دولة الفاطميين دولة تفاريح، لكنها جعلت من التفاريح ستارا يخفى حقيقة أمرها، ويغطى مراميها وأهدافها البعيدة. ولا تنس أن الدولة الفاطمية، منذ نشأتها فى المغرب، كانت ثمرة دعوة سرية يغمرها الخفاء والإبهام، وكان أول خلفائها عبيد الله المهدى شخصية غامضة اضطربت الأقوال فى صحة نسبه إلى أهل البيت، وكان

التنظيم السرى الذى أقامه مؤسسو هذه الدولة فى المغرب هو قوام نشأتها . . وظل الطابع السرى ملازما لها حتى بعد انتقالها إلى مصر ، ونشأ عن ذلك تناقض فى كيان الدولة ، فالنظام الحاكم ينتسب إلى الفكرة الشيعية سياسيا ودينيا ، بينما الشعب المصرى سُنّى خالص . . فكان على نظام الحكم الجديد أن يخفى هويته وحقيقة أمره عن الشعب الذى يخالفه فى المذهب والعقيدة .

وكانت الاحتفالات والسهرات والولائم والمطاعم هى إحدى وسائل الخفاء والتمويه التى استخدمتها الدولة الفاطمية لإغراء المصريين وإغراقهم فى المظاهر الاحتفالية حتى ينصرفوا عن البحث فى طبيعة النظام الجديد وأهدافه ومراميه . . وحرص الفاطميون فى أول عهدهم بمصر على الظهور بمظهر التسامح الذى لا يفرق بين مذهب ومذهب وضمّنوا بياناتهم الأولى إلى الشعب المصرى عبارات براقة ترتفع فوق مستوى الخلافات الدينية والصراعات المذهبية ، ولو رجعت إلى البيان رقم واحد الذى أذاعه قائد الحملة جوهر الصقلى لوجدته مزينا بهذه المبادئ الإسلامية السامية التى تتحدث عن وحدة الشريعة وضرورة اتباعها ، ويلتزم فيها بأن يترك المصريين على مذهبهم ولا يتدخل فى شئونهم الدينية ، وهو يخاطب المصريين بصريح العبارة بأن خطة الدولة الجديدة تقوم على : «إقامتكم على مذهبكم ، وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم ، والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم ، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة - رضى الله عنهم - والتابعين بعدهم ، وفقهاء الأمصار (يقصد فقهاء المذاهب السنية) الذين جرت الأحكام بمذاهبهم

وفتواهم، وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه، والزكاة والحج والجهاد على ما أمر الله فى كتابه، ونصه نبيه ﷺ فى سنته . . إلخ».

برنامج عمل:

فأنت ترى فى بيان «جوهر» برنامج عمل الدولة الجديدة، ومنهج سياستها الدينية القائم على أساس من الحرية وعدم التعرض للأمور الدينية، والأصول الفقهية التى رسخت فى مصر منذ دخلها الإسلام، بل إنه يحرص على أن يتحدث عن صحابة رسول الله ﷺ فى إطار من الوقار. وهى لهجة جديدة وغريبة على التقاليد الشيعية التى جعلت من سب السلف شعيرة يلتزم بها الخطباء على المنابر، ويؤكد أنه لن تجرى أى تغييرات على صيغة الأذان، فقد كان الشيعة يضعون الأذان بعد الشهادتين عبارة الشهادة بأن عليا حجة الله وولى الله.

وعبارة (حى على خير العمل) بدلا من عبارة (حى على الفلاح) وكانت هذه التغييرات فى صيغة الأذان سببا فى مشاحنات ومصادمات بين الشيعة وأهل السنة داخل المجتمعات الإسلامية.

ولكن النظام الجديد - كأى نظام جديد - لم يلتزم بعهوده بعد أن ثبتت أركانه . . ولم تلبث الدولة الفاطمية أن تخلت عن وعودها وبدأت تتدخل فى الشئون الدينية وتعمل بكل ما لديها من قوة على استمالة المصريين إلى المذهب الرسمى للدولة، وعلى تغيير البنية المذهبية حتى يصبح الشعب المصرى على دين ملوكه . . شيعيا

إسماعيليا باطنيا (!!) وأخذ العمل فى تدعيم الصبغة المذهبية يجرى وفق خطة وئيدة وبطيئة حتى لا تتصادم الدولة مع المشاعر الدينية لدى الشعب المصرى. وكان الفاطميون يعلمون جيداً أن طبيعة المصريين تختلف عن طبيعة البربر الذين نشأت فيهم الدعوة الإسماعيلية فتقبلوها بغير كبير من العناء - أما المصريون فهم أصحاب باع قديم فى مجال الفكر الدينى، فمصر عرفت التدين منذ فجر التاريخ الإنسانى، واختلطت باليهودية طوال إقامة بنى إسرائيل فى مصر إلى حين خروجهم بقيادة نبى الله موسى عليه السلام، واعتنقت مصر المسيحية ثم الإسلام، وباتت لديها خبرة فى شئون العقائد مما جعل مهمة الدولة الجديدة ليست بالسهولة التى كانت عليها المجتمعات البدائية فى المغرب، وكان على الفاطميين أن يتحسسوا طريقهم إلى النفس المصرية فى حذر، ولا يكشفوا عن حقيقة أمرهم دفعة واحدة، ولجئوا فى ذلك إلى خطط وبرامج تتسم بالدهاء والمكر والقدرة الفائقة على التمويه فنجحوا فى ذلك إلى مدى بعيد.. ومع ذلك لا يستطيع مورخ أن يزعم أن الفاطميين نجحوا فى إخراج المصريين من كهف السنة إلى كهف التشيع، ولكن النجاح المقصود يتمثل فى توطيد أركان دولتهم وتثبيت جذورها وتوسيع نفوذها وبقاء سلطانها لمدة تزيد على قرنين.. هذا هومظهر النجاح الذى حققه الفاطميون، وهو بلا شك نجاح غير منكور، ولكنهم فى النهاية لم يصلوا إلى غايتهم النهائية وهى تحويل المصريين إلى خندق الشيعة، وليس أدل على ذلك من أن هذه الحقبة الطويلة التى عاشتها الدولة الفاطمية لم تثمر تحولا مذهبيا فى الشارع المصرى بالرغم من أساليب الدعاية الجبارة وأفانين المغريات التى قدمها الفاطميون.. لقد أكل المصريون الكنافة

والقطايف والخشاف وحلاوة المولد وذرفوا الدموع على مصرع الحسين. وعملوا فى خدمة الدولة ومؤسساتها وإداراتها ومصالحها وقبضوا مرتباتها. . ولكنهم وقفوا موقف المستريب من فكرها وعقيدتها ومذهبها، خاصة فى المرحلة التى كشف فيها النظام عن صبغته المذهبية، وخلع النقاب عن حقيقة دعوته السرية. . وعندما بلغ الصدام بين الدولة والشعب درجة التلاحم بالخناجر والبلط فى شوارع القاهرة.

الإمامة الدينية:

كانت الدولة الفاطمية ذات أيديولوجية خاصة تختلف عن التراث الفكرى الذى كان موجودا فى مصر، فالمصريون منذ اعتنقوا الإسلام وهم جزء لا يتجزأ من جمهور أهل السنة الذى جعل من الخلافة نظاما سياسيا للحكم. . وجعل من البيعة أساسا لاختيار الخليفة دون نظر إلى نسبه أو حسبه. . أما الدولة الفاطمية فقد شادت سلطانها السياسى على أساس «الإمامة» الدينية التى جعلت منها النظرية الشيعية حجر الزاوية فى شئون الدين والسياسة والفقه، «فالإمامة» هى أهم مبادئ الدعوة الشيعية وأساس قواعدها، وملاذها الذى انضوت تحت لوائه. وحاولت أن تؤكده بسائر الوسائل الروحية والمذهبية، ولم تدخر وسعا فى أن تستمد أسانيدها من القرآن ذاته، ومن الأحاديث النبوية، لتسبغ بذلك على مسألة «الإمامة» جوا من القدسية يسمو إلى مرتبة النبوة ذاتها، مثال ذلك أن أول دعاء دُعى به للمعز لدين الله فى أول جمعة رسمية أقيمت فى سنة ٣٥٨هـ عقب

الفتح الفاطمى فى الجامع العتيق (مسجد عمرو بن العاص) كان نصه : «اللهم صل على عبدك ووليك ثمرة النبوة. وسليل العزة الهادية، عبد الله الإمام معد أبى تميم المعز لدين الله، أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه الطاهرين، وأسلافه الأئمة الراشدين».

وقد عمل فقهاء الشيعة ودعاتها على أن يخلقوا هذا الجو القدسى حول الإمامة بما وضعوه من الكتب والرسائل العديدة. وعندما جاء الفاطميون إلى مصر وضعوا نصب أعينهم صبغ المجتمع المصرى بهذه الصبغة المذهبية الغريبة عليه، فلم يصبح (الخليفة - الإمام) مثل غيره من خلفاء الدولة العباسية أو الأموية، ولكنه أصبح «إماما» اجتمعت فيه الرياستان الزمنية والدينية. وعندما وطأت قدما المعز لدين الله أرض الإسكندرية حرص على أن يبدو فى سمت «الإمامة» منذ اللحظة الأولى، وقال لوفد المصريين الذى خف إلى لقائه : «إنه لم يسر لازدياد فى ملك ولا رجال.. ولا سار إلا رغبة فى الجهاد ونصرة المسلمين» ونراه فى مواكبه وشعائره الدينية حريصا على مظاهر الإمامة، يبدو إماما دينيا أكثر منه ملكًا سياسيًا، وقد سجل الفقيه الحسن بن زولاق المصرى، صديق المعز ومؤرخ سيرته، كثيرا من هذه المظاهر، يبدو فيها المعز إماما وافر التقى والورع، يؤم الناس للصلاة، ويعظهم خاشعًا باكيًا، وقد حرص أبناء المعز وأحفاده، مع بعض الاستثناءات على هذه المظاهر، فى مواكبهم وأعمالهم الدينية والرسمية.

وكان على دعاة المذهب الإسماعيلى أن يعملوا على تسريب معالم الدعوة المذهبية الجديدة إلى الشارع المصرى شيئًا فشيئًا، وكان الأزهر

أداتهم الرئيسية فى ذلك وقد كان الهدف الأساسى من بنائه أن يكون مؤسسة لنشر أفكار الدعوة الإسماعيلية على جماهير القاهرة . . وقد جاء الفاطميون وفى صحبتهم كبار الدعاة الذين عاصروا نشأة الدولة فى المغرب وعلى رأسهم الفقيه الكبير أبو حنيفة النعمان بن محمد بن منصور المعروف بابن حيّون التميمى القيروانى ، وهو بالطبع غير الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان فقيه أهل السنة المتوفى فى بغداد عام ١٥٠هـ . . بينما نحن نتحدث فى أواسط القرن الرابع الهجرى ، والأرضية التى هى مجال حديثنا هى مصر والمغرب ، وكان ابن حيّون قد خدم عبيد الله المهدى مؤسس الدولة الفاطمية فى المغرب ثم أبناءه الخلفاء من بعده ، وقدم فى ركب المعز لدين الله إلى مصر ، وتولى مرتبة الدعوة والقضاء فى عهده ، وكان من أكابر فقهاء الشيعة إلى جانب كونه أوثق أصدقاء المعز ومستشاريه ، وقد ألف كتبًا عديدة فى فقه الشيعة ، ويعتبر كتابه «دعائم الإسلام ، وذكر الحلال والحرام ، والقضايا والأحكام» هو متن الفقه الشيعى فى ظل الدولة الفاطمية (مثلما كانت اجتهادات سميّه أبى حنيفة النعمان متن الفقه السنى فى عصر الرشيد) بل لا يزال حتى اليوم هو المرجع الفقهى لطائفة البهرة . . وكان هذا الفقيه الشيعى الكبير يتصدر ساحة الأزهر ليلقى على الناس مبادئ الفكر الجديد فيتحدث طويلا عن ولاية الأئمة ومنزلتهم ووصاياهم ، ويورد للناس طائفة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية التى تدعم أفكاره فى مسألة الولاية أو الإمامة وكيف أنها خصت بعلى بن أبى طالب وبأبنائه من آل البيت وكيف أن الإمامة قد استقرت بالنص من رسول الله على إمامة علىّ ونصبه إياه ، ثم يصف الأئمة بأنهم «خلق من خلق الله ، وعباد مصطفون من

عباده، افترض طاعة كل إمام منهم على أهل عصره، وأوجب عليهم التسليم لأمره، وقرن طاعتهم فى كتابه بطاعته، وطاعة رسول الله، وهم حجج الله على خلقه وخلفائه فى أرضه».

مرتبة النبوة:

والمؤرخون المعاصرون الذين عكفوا على دراسة المذاهب الشيعية لا يختلفون على أن «الإمامة» تقترن فى الفكر الإسماعيلى بمرتبة النبوة ذاتها، تنسب للإمام، كما نسبت إلى النبى معجزات وأعمال خارقة لا يأتيها البشر، فمن ذلك ما رواه الداعى الإسماعيلى المعروف عماد الدين إدريس فى كتابه «زهر المعانى» فى حديثه عن الإمام إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق، والذى تفرعت منه الدعوة الإسماعيلية وتنتسب إليه، فيقول عن إسماعيل هذا إنه توفى ودفن، ثم ظهر حيا بالبصرة، «وأقبل إليه الناس يهرعون، وهم يقولون: هذا إسماعيل بن جعفر عاد حيا» وإنه مسح بيده المباركة على ظهر شيخ مريض، فبرئ من علته، وشاهد الخلق ذلك، وغاب عنهم، يقول الداعى المذكور: «فكان ما أظهره إسماعيل - عليه أتم الصلوات - من الغيبة والظهور بعد ذلك كما فعل جده الناطق المرسل محمد ﷺ . . فأظهر الإمام إسماعيل ما أظهره إعجازاً للخلائق، بظهور القدرة من الله تعالى، وبقاء الكلمة فى عقبه الطاهرين من بيته» ثم يقول: «ومثل هذه المعجزات العظيمة، التى تقصر عن معرفتها العقول، ويتيه فيها مع السائل المسئول، يظهرها العقل الأول الذى هو الإبداع الأول بهم، لتظهر القدرة للعارفين».

فهذه المعجزات التى ينسبها الإسماعيليون إلى عميدهم إسماعيل بن جعفر ، تذكرك على الفور بالمعجزات التى ذكرها القرآن الكريم عن المسيح عيسى عليه السلام الذى أحيا الموتى ، وأبرأ الأكمة والأبرص ، وتذكرك بفكرة الرجعة التى ذكرها القرآن الكريم عن أصحاب الكهف وعن أحد أنبياء بنى إسرائيل الذى مَرّ على قرية وهى خاوية على عروشها فقال أنى يحيى هذه الله بعد موتها ، فأماته الله مائة عام ثم بعثه . . إلخ .

وقد أفاض مؤرخو المذاهب فى شرح أبعاد المذهب الإسماعيلى والمصادر التى استقى منها وهى فى معظمها مصادر غير إسلامية ، وكيف تأثر بالمذاهب الفلسفية للتراث اليونانى ومدرسة الإسكندرية وخاصة مذهب أفلوطين مؤسس الأفلاطونية المحدثة .

وقد اجتذبت الدعوة الإسماعيلية عددا كبيراً من مؤرخى الفرق والمذاهب . ويعود ذلك إلى الغموض الذى اتسمت به هذه الدعوة منذ نشأتها ، فمن المؤرخين المسلمين عبد القاهر البغدادى صاحب كتاب (الفرْق بين الفرق) والشهرستانى صاحب كتاب (الملل والنحل) كما تناولهم الإمام الغَزالى فى كتابه (الرد على الباطنية) ووضع المؤرخ المقريزى كتابًا خاصًا عن خلفاء الفاطمية سماه (اتعاظ الحنفاء بأخبار الأئمة الخلفاء) ، فضلا عن تعرضه لهم فى موسوعته الخطط والآثار . ومن أبرز المستشرقين الذين تخصصوا فى تاريخ الدعوة الإسماعيلية الباحث الروسى إيفانوف الذى وضع أكثر من مؤلف فى الفكر

الإسماعيلى فيما بين عامى ١٩٤٢ و١٩٥٢، وكذلك المستشرق الشهير جولدتسيهر، والباحث الإنجليزى برنارد لويس الذى ألف كتابا خاصا عن فرقة الحشاشين وهم أحد فروع الدوحة الإسماعيلية. ومن المؤرخين المحدثين الذين ينتسبون إلى المذهب الإسماعيلى الباحث السورى الدكتور مصطفى غالب، وإليه يرجع الفضل فى إماطة اللثام عن حقيقة الدعوة الإسماعيلية، وكشف الغموض الذى اكتنفها على مدى القرون السالفة، وقدم فى ذلك عدداً من المؤلفات المستقاة من المخطوطات الإسماعيلية القديمة.

كما حظيت الدعوة الإسماعيلية باهتمام عدد كبير من العلماء المحدثين منهم الدكتور محمد كامل حسين، الذى نجح فى تحقيق وتقديم بعض تراث الفكر الإسماعيلى، وكذلك الدكتور عبد المنعم ماجد، والدكتور أبو زهرة، والدكتور عبد المنعم النمر، والدكتور مصطفى الشكعة، والدكتور محمد مصطفى حلمى، ولكنى سوف أتوقف عند مؤلفات المؤرخ الكبير محمد عبد الله عنان الذى عنى بتاريخ الدولة الفاطمية، وأصدر فيها العديد من الكتب والرسائل العلمية، فهو يستخلص من أقوال دعاة الإسماعيلية وشروحهم أن الإمامة لم تكن فقط مسألة رياسة دينية وسياسية يتنازعها فريقان من الأمة الإسلامية، وإنما كانت بالعكس، فى زعمهم، إرادة إلهية، قررها كتاب الله وأيدها رسوله بما رووه من «أحاديث» لا نهاية لها.

وأن خلاصة نظريتهم، من الناحية العملية، هو أن تراث النبى العربى، لم يكن تراث أمة هداها الله إلى الإسلام، وتراث رياسة معنوية جاءت ثمرة الرسالة النبوية، وإنما كانت تراثاً شخصياً، وميراثا

خالصا لأسرة النبى، صاحب هذه الرسالة، وأن النبى أوصى بهذا التراث إلى ابن عمه على بن أبى طالب، زوج ابنته فاطمة الزهراء، وبنيه من بعده، أبناء ولديه الحسن والحسين. وهكذا تغدو رياسة الأمة الإسلامية فى نظرهم، ووفقا لتأويلاتهم ورواياتهم، ميراثا خاصا، لا يليها «حتى يوم القيامة» أحد سوى آل البيت.

الأزهر.. الأثر الباقى

لا يجوز الحديث عن مصر الفاطمية بغير الحديث عن الأزهر، تلك المؤسسة الدينية الكبرى التى قامت لتكون جامعا ثم لم تلبث أن صارت جامعة . ويقيت على مدى ألف عام أعرق وأضخم جامعة فى عالم الإسلام تحتضن الباحثين عن العلم من شتى أنحاء العالم. ويتولى التدريس فيها أعاظم الفقهاء والعلماء . . هذا هو الأزهر منذ بناه جوهر الصقلى غداة وصوله إلى مصر ليكون مسجدا رسميا لسيده ومولاه المعز لدين الله. ومركزا لنشر المذهب الشيعى، المذهب الرسمى لدولة الفاطميين، وبقيت هذه العلاقة الحميمة بين الأزهر ومؤسسة الحكم فى مصر لصيقة بالأزهر وعلامة بارزة من علاماته، فهو مركز الافتاء الرسمى، وبؤرة التشريع والتقنين والناطق الدينى باسم الحاكم، ويبقى الأزهر يقوم بهذه المهمة الرسمية حتى بعد أن زالت دولة الفاطميين وجاءت بعدها دول ورجال وظل الأزهر مرتبطا بالجالس على العرش سواء كان خليفة فاطميا، أو سلطانا أيوبيا، أو أميرا مملوكيا أو واليا عثمانيا، أو ملكا برلمانيا، أو رئيسا جمهوريا . . فالأنظمة تتغير . والوجوه تتبدل . . ولا يتغير الأزهر ولا يخرج عن نطاق المهمة الرسمية التى حددها له جوهر الصقلى فى الثلث الأخير

من القرن الرابع الهجرى . . لقد قامت من قبله مساجد، وقامت من بعده مساجد ولكنها لم تصل جميعا إلى مستوى المكانة التى بلغها الأزهر .

لقد ترسخت مكانة الأزهر فى مصر والعالم الإسلامى كمؤسسة علمية ودينية مع توالى العصور والقرون، وآلت إليه الزعامة الفكرية والثقافية فى الوقت الذى أفل فيه نجم الحضارة فى مواقع كثيرة، واستطاع الأزهر أن يجتاز الكبوة التى تعرض لها خلال العصر الأيوبى، وسرعان ما استرد مكانته العلمية والأدبية واستأنف رسالته العظمى فى تخريج العلماء والأدباء والفقهاء .

تلاحظ الدكتورة سعاد ماهر فى كتابها (مساجد مصر) أن هذه المكانة بلغت ذروتها فى العصر المملوكى، إذ يحتوى القرن الثامن الهجرى على أنباء تدل على أن الأزهر كان يتمتع فى ظل دولة المماليك برعاية خاصة، وكان الأكابر من علمائه يتمتعون بالجاه والنفوذ، ويشغلون وظائف القضاء العليا ويستأثرون بمراكز التوجيه والإرشاد، وكان هذا النفوذ يصل أحيانًا إلى التأثير فى سياسة الدولة العليا، وأحيانا فى مصاير العرش والسلطان، ولا تنس أن الحكام المماليك لم يكونوا عربا . . ولا مصريين . . وأنهم وفدوا على مصر وهم لا يتكلمون العربية . . فكان عليهم أن يعوضوا هذا النقص عن طريق تدعيم المؤسسات الدينية . وتشجيع الحركات الثقافية والفكرية حتى يتقربوا إلى الشعب الذى يحكمونه، ولذلك يرى مؤرخو الأزهر أن فترة الحكم المملوكى هى فى الواقع عصر الأزهر الذهبى من حيث الإنتاج العلمى الممتاز . ومن حيث تبوئه مركز الزعامة والنفوذ . .

وماظنك بجامع - أو جامعة - يتولى التدريس فيها علماء ومؤرخون من طبقة ابن خلدون والنويرى والقلقشندى والسيوطى، ولن أحدثك عن علماء الشيعة. الذين قاموا بمهمة التدريس فى الأزهر عند إنشائه، فهؤلاء لهم حديث آخر.. ولكنى أتحدث إليك الآن عن التطور العلمى لهذه المؤسسة الإسلامية العريقة، وما قامت به من أمجاد فى الأوقات التى خبا فيها نور الثقافة العربية بل حمل الأزهر مشعل العلم والحضارة قبل أن تقوم مراكز العلم والحضارة فى أوروبا، فجامعة باريس لم تنشأ إلا بعد قرنين من قيام الأزهر، وجامعة أكسفورد بعد ثلاثة قرون، وجامعة لوفان فى بلجيكا قامت بعد خمسة قرون..

وهكذا كان للأزهر دور الريادة فى عالم الثقافة والتنوير.. ويطول بنا الحديث لو تمادينا فى رواية أمجاد الأزهر العلمية والدينية، وهو يخرج عن نطاق حديثنا الذى ينحصر فى دور النشأة..

دولة مذهبية:

لقد سبق أن قلت لك إن الدولة الفاطمية كانت دولة مذهبية، لأنها كانت تعتنق مذهب الشيعة الإسماعيلية الذى يختلف تماما عن مذهب أهل السنة الذى يسير عليه أهل مصر، وكان الفاطميون يطمحون إلى قيام نظام سياسى ومذهبى فى مصر مما يتطلب قيام مؤسسات ثقافية وإعلامية تقوم بمهمة ذيوع مذهب الدولة الرسمى وكسب القلوب حوله، وكان لابد أن يقوم الأزهر - الجامع - ليحمل مهمة الدعوة للمذهب الجديد، تماما كما يحدث عقب وقوع انقلاب فى نظام الحكم، فيكون أول شىء يفعله النظام الجديد هو الاستيلاء على الإذاعة لكى

يحتكر قناة الاتصال بالجماهير . . ولم تكن فى مصر إذاعة حتى يستولى عليها الحكام الفاطميون ، فكان عليهم أن يقيموا مسجدا جامعا يتحدثون فيه إلى الناس عن دعوتهم الجديدة ، ويعملون على كسب ولائهم واستقطابهم لتأييد النظام الجديد ، وكان أول شىء فعله جوهر بعد الفراغ من بناء القصر الكبير أن وضع حجر الأساس فى بناء الأزهر فى يوم السبت ٢٢ جمادى الأولى سنة ٣٥٩هـ الموافق الثانى من إبريل سنة ٩٧٠م ـ كما ورد فى المقريزى ـ وتوخى جوهر أن يكون المسجد فى موقع يتوسط العاصمة الجديدة ـ القاهرة ـ على النحو الذى كان سائدًا فى عمارة الحواضر الإسلامية . واختيار جوهر مكانا بالقرب من القصر الكبير وإذا أردت أن تعرف موقع هذا القصر فما عليك إلا أن تنظر إلى مسجد سيدنا الإمام الحسين ، فتعلم أن هنا كان موقع القصر الكبير . وتعلم أيضًا أن رأس الإمام الحسين عندما نقل من عسقلان إلى مصر فى أواخر العصر الفاطمى أنزل فى أول الأمر إلى حديقة القصر . ثم حمل فى السرداب إلى قصر الزمرد . ثم دفن عند قبة الديلم بباب دهليز الخدمة . وكان ذلك فى خلافة (الفائز) الفاطمى سنة ٥٥٤هـ ، وبقى الرأس مدفونًا فى قصر الزمرد حتى أنشئت له خصيصًا قبة هى المشهد الحالى الذى تراه الآن : لقد زال القصر وبليت أطلاله . . وبقى مشهد الحسين حيث هو . .

فقه الشيعة:

ومعنى ذلك أن جوهر آثر أن يكون الأزهر على مقربة من قصر الحكم حتى يكون فى استطاعة الخليفة أن يباشر عن قرب ما يجرى فى

الأزهر. ولا يتجشم فى سبيل ذلك مشقة الانتقال. وأتم جوهر تشييد المسجد بعد عامين. وأقيمت فيه أول صلاة جمعة يوم ٦ رمضان سنة ٣٦١هـ الموافق يونيه ٩٧٢م. ولقد لاحظ المصلون أن أول خطبة ألقيت على منبر الأزهر تضمنت تغييرات مهمة فى متن الخطبة. الأمر الذى يعكس تغييراً مهمًا فى نظام الحكم. فالمعروف فى التقليد الإسلامى أن الدعاء للحاكم فى خطبة الجمعة يمثل اعترافًا بشرعية الحكم. وتغيير اسم الحاكم يستتبعه بالضرورة قطع الدعاء له. والنداء باسم الحاكم الجديد. وهذا ما حدث فى أول خطبة استمع إليها الناس من فوق منبر الأزهر. فقد أمر جوهر بقطع الدعاء للخليفة العباسى. وكانت مصر حتى ذلك الوقت تعترف بالتبعية إلى خليفة بنى العباس، وكان عليها أن تعترف الآن بخلافة الحاكم الفاطمى: المعز لدين الله. ولم يقتصر التغيير فى الخطبة على ذلك، وإنما أمر جوهر بأن يقال فى الخطبة: «اللهم صل على محمد المصطفى، وعلى علىّ المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول، الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، وصل على الأئمة الطاهرين آباء أمير المؤمنين المعز لدين الله». كما أضاف إلى الأذان عبارة «حى على خير العمل» وكل هذه الإضافات هى من تقاليد الفكر الشيعى.. الفكر الرسمى لدولة الفواطم.

وبعد حضور المعز لدين الله إلى مصر، بدأ الأزهر يباشر مهمته فى الدعوة إلى المذهب الجديد. وجلس قاضى القضاة أبو الحسن بن النعمان فى صحن الأزهر يقرأ مختصر أبيه (أبو حنيفة النعمان بن حيون) فى فقه الشيعة، وحضر الدرس جمع حافل من وجوه الدولة

وعلمائها، وأثبت القاضي أسماء الحاضرين، فكانت هذه أول حلقة للدرس بالأزهر. وبعد وفاة المعز، اقترح الوزير الخطير يعقوب بن كلس على الخليفة الجديد «العزيز»، أن يعين بالأزهر جماعة من الفقهاء للقراءة والدرس يعقدون مجالسهم بالأزهر بعد صلاة الجمعة إلى صلاة العصر، وكان عددهم ٣٧ فقيها، ورتب لهم مرتبات شهرية ثابتة وجرايات حسنة، وأنشأ لهم دارا للسكنى بجوار الأزهر، فكانت هذه أول خطوة لاستغلال الأزهر كمعهد لتدريس الفكر الشيعي إلى جانب كونه مسجدا لإقامة الصلوات. وكان هؤلاء الفقهاء الذين لا يزيد عددهم على ٣٧ دارسا هم النواة الأولى لأفواج الدارسين بالجامعة الأزهرية، وعلى مر العصور سار الأثرياء والأمراء والكبراء على نهج الخلفاء الفاطميين، فتنافسوا على إقامة حلقات الدرس وتشييد الأروقة للمجاورين - طلبة الأزهر - وفرشت الأروقة بما يلزمها من بسط، وصارت مساكن يأوي إليها طلاب العالم. وأعدت بجانبها محلات للغسيل وأخرى للوضوء وغيرها لطبخ الطعام، بحيث لا يحتاج الطالب إلى مغادرة الأزهر إلا نادراً، فهو دائمًا منكب على التعليم، وكان في ذلك تشجيع لأبناء الشعوب الإسلامية على المجيء إلى مصر، فكنت ترى الكردي إلى جانب الهندي، والسوداني والأفغاني والحبشي بجانب التركي والمصري والمغربي والجاوي والشركسي والشامي.. تسودهم جميعا رابطة الدين والإخاء، وعلى مر السنين كثرت الأروقة، فمن الأروقة المصرية رواق الصعايدة، ورواق البحاروة، ورواق الحنفية، ورواق الشراقوة، ورواق الحنابلة، والرواق العباسي، وكان هناك رواق خاص للعميان لا يسكنه إلا مكفوفو البصر وشيخهم منهم.

وهكذا نما الأزهر كجامعة عالمية جعلت من مصر قبلة العلماء، وموئل الفقهاء، ومشعل الحضارة. ويمكن القول إن تطور الأزهر واتساع رسالته، على المستوى العالمي كان يراود خاطر مؤسسيه الفاطميين، فقد كانوا أصحاب دعوة عالمية تخرج عن نطاق مصر المحلي وتتعداها إلى ما سواها من أقطار إسلامية، وليس من شك في أن بناة الأزهر الأوائل كانوا يعملون بكل همة على تشيع المجتمع المصرى، وكانوا يتوسلون لغزوه بكل الوسائل السياسية والفكرية، ولم يكن اعتماد الخلافة الفاطمية في بث دعوتها على سلاح التشريع قدر اعتمادها على الدعاية السرية وغزو العقول بطرق منظمة فهى خير وسيلة لغزو الأذهان المستنيرة وحشدها لتأييد الدعوة المنشودة، وقد كانت الدعوة السرية أنفذ وسائل الفاطميين إلى تبوء الملك، فلما جنوا ثمار ظفرهم الأولى ونجحوا في الاستيلاء على مصر، كانت الدعوة السرية وسيلتهم إلى حماية ثمرتهم وتدعيمها، وكانت هذه الدعوة المذهبية تتخذ منذ البداية صيغة رسمية، ومنذ قامت الخلافة الفاطمية بالقاهرة نراها تنتظم في القصر الفاطمي، وتتخذ صورة الدعوة إلى قراءة علوم أهل البيت - علوم الشيعة - والتفقه فيها. وكان يقوم بالقاء هذه الدروس المذهبية في زمن المعز والعزيز بنو النعمان، وهم أسرة مغربية متخصصة في الفقه الشيعي صاحبت الغزو وتولت قضاء مصر زهاء نصف قرن، وكانت هذه الدروس تلقى أحيانا في القصر، وأحيانا في الجامع الأزهر، وأحيانا كان يشترك في القائها بعض عظماء الدولة مثل الوزير يعقوب بن كلس، فقد كان يتولى قراءة علوم الشيعة وشرحها للكافة بنفسه، وله في الفقه الشيعي رسالة مشهورة تعرف بالرسالة (العزيزية) نسبة إلى الخليفة العزيز، ويشير

المسبّحى مؤرخ الدولة الفاطمية إلى إقبال الكافة على الاستماع لهذه الدروس المذهبية، فيقول: إنه فى ربيع الأول سنة ٣٨٥هـ جلس القاضى محمد بن النعمان بالقصر لقراءة علوم أهل البيت على الرسم المعتاد، فمات فى الزحام أحد عشر رجلا فكفنهم العزيز بنفسه.

دار الحكمة:

ومع تطور الدعوة الفاطمية وتطرفها العقائدى لم يعد الأزهر يفى بالحاجة إلى تخريج دعاة مدربين على اختراق الحواجز المذهبية والدينية لدى الناس المطلوب تجنيدهم لخدمة الدعوة السرية، وأصبحت الحاجة ملحة لإنشاء مؤسسة سرية تكون مهمتها إعداد هؤلاء الدعاة المتخصصين خصوصا عندما جاء الحاكم بأمر الله إلى الحكم وكشف عن وجهه القبيح ودعا الناس إلى تأليهه، فأنشأ الحاكم (دار الحكمة) لتقوم بهذه المهمة الخاصة إلى جانب المهمة العامة للأزهر.. ويمكنك أن تقول إن الأزهر كان أشبه بالجامعة.. أما دار الحكمة فكانت بمثابة مؤسسة للدراسات الأكاديمية أو الدراسات العليا التى لا يقربها إلا من أوتى حظًا كبيرًا فى علوم الدعوة الجديدة أى (تأليه الحاكم).

لقد أنشأ الحاكم بأمر الله مؤسسته الجديدة بجوار القصر الغربى الصغير وفتحت أبوابها لروادها يوم السبت العاشر من جمادى الآخرة سنة ٣٩٥هـ بعد أن فرشت وعلقت الستائر على جميع أبوابها وممراتها، ورصد لها جمع من الموظفين والخدم ليقوموا على خدمة الدارسين والأساتذة، وقد هيئت لهم المرتبات والأرزاق، وأعدت

لهم مكتبة ضخمة نقلت إليها الكتب من خزائن القصر الملكي فى سائر العلوم والآداب مما لم ير مثله مجتمعا لأحد قبل قط، وأودعت بها كتب التشيع، فضلا عما يحتاجه الدارسون من أقلام وأوراق وأحبار، وأوقف الحاكم على دار الحكمة أوقافا تنفق غلتها على مصالحها. ويحدد الدكتور أحمد أحمد بدوى ثلاثة أهداف من إنشاء هذه الدار، أولها: أن تكون سجلا للحركة الفكرية، فتحفظ بها الكتب والمحاضرات ليستطيع من يشاء أن ينهل منها، وأن يعود إليها في البحث والدراسة.. ثانيها: تثقيف القضاة بدراسة الفقه الشيعى دراسة واسعة، وهؤلاء يدخلون دار الحكمة بعد أن يتموا دراستهم بالأزهر.. ثالثها: تعليم رجال الدعوة حتى ينهضوا بعبء نشرها فى أرجاء الإمبراطورية الفاطمية، فكانوا يدخلون الدار بعد أن يكونوا قد درسوا في الأزهر.. النحو والفلسفة والمنطق والتنجيم، وكان أمر تثقيف هؤلاء موكولا إلى داعى الدعاة، يجتمعون إليه ويتكلمون.. فى العلوم المتعلقة بمذهبهم، والداعى رجل عالم فى جميع مذاهب أهل البيت، يقرأ الدرس على فقهاء الدولة، وبين يديه من نقباء المتعلمين اثنا عشر نقيبا، وله نواب فى سائر البلاد كنواب قاضى القضاة، وأن هذه الأهداف لتدلنا على أن الغرض الذى أنشئت له دار الحكمة إنما هو نشر تعاليم الشيعة فى الناس بطريقة علمية منظمة.

أهل الثقة:

وهذه الطريقة المنظمة تكشف عن الجانب المستور فى نظام الحكم الفاطمى، وهو الجانب الذى لم يكن يظهر إلا للخاصة.. بل خاصة

الخاصة الذين أصبحوا محلا للثقة، هنا بين الجدران المغلقة كان علماء المذهب الإسماعيلى يكشفون عن مكنون صدورهم ويبوحون بحقيقة الدعوة السرية التى خفيت عن عامة المصريين، وفى ذلك يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان وهو بصدد المقارنة بين الدعاية المذهبية فى شكلها الظاهر بالأزهر، والدعاية الخفية داخل القصور ودار الحكمة:
إن الدعاية الظاهرة كانت ستارا وتمهيدًا لدعاية أخرى كانت تحاط بنوع من التحفظ والتكتم ويشرف على تنظيمها وتلقينها زعيم دينى كبير يشغل منصبا مهما فى ديوانه الخاص ويُنعت (بداعى الدعاة) وكان هذا المنصب الخطير من أغرب الخطط الدينية التى أنشأتها الدولة الفاطمية، كما كان داعى الدعاة من أغرب الشخصيات الرسمية التى خلقتها، وكان داعى الدعاة يلى قاضى القضاة فى الرتبة، ويتزيا بزيه، ويتمتع بمثل امتيازاته، وينتخب من بين أكابر فقهاء الشيعة المتضلعين فى العلوم الدينية، وفى أسرار الدعوة الفاطمية. ويعاونه فى نشر الدعوة اثنا عشر نقيبا وعدة كبيرة من النواب يمثلونه فى سائر النواحى، وكانت هذه الدروس الخاصة تلقى بعد مراجعة الخليفة وموافقته فى إيوان القصر الكبير، وتعقد للنساء مجالس خاصة بمركز الداعى بالقصر، وهو المسمى بـ «المحول» وكان من أعظم الأبنية، أرحبها، فإذا انتهت القراءة أقبل المؤمنون والمؤمنات على الداعى، فيمسح على رءوسهم بعلامة الخليفة، ويأخذ العهد على الراغبين فى دخول المذهب، ويؤدى له «النجوى» من استطاع (وهو رسم اختيارى قدره ثلاثة دراهم وثلث يجبى من المؤمنين للانفاق على الدعوة والدعاة).
وكانت ثمة مجالس أخرى تعقد بالقصر أيضا لبعض الهيئات والطبقات الممتازة من أولياء المذاهب، ورجال الدولة والقصر، ونساء

ا لحرم والخاص، ويسودها التحفظ والتكتم، ويحظر شهودها على الكافة، وتعرض فيها الدعوة الفاطمية السرية على يد دعاة تفقهوا فى درسها وعرضها: وكان تلقين هذه الدعوة هو أخطر مهمة يقوم بها الدعاة، بل كان فى الواقع أهم غاية يراد تحقيقها. وكان للكافة أيضا نصيب من تلك المجالس، فيعقد للرجال مجلس بالقصر، ويعقد للنساء مجلس بالجامع الأزهر، ويعقد مجلس للأجانب الراغبين فى تلقى الدعوة: وكان الداعى يشرف على هذه المجالس جميعا إما بنفسه أو بواسطة نقبائه ونوابه، وكانت الدعوة تنظم وترتب طبقا لمستوى الطبقات والأذهان، فلا يتلقى الكافة منها سوى مبادئها وأصولها العامة، ويرتفع الدعاة بالخاصة والمستنيرين إلى مراتبها وأسرارها العليا.

وقد عرضنا من قبل، فى حديثنا عن الإمامة، إلى ما ينسب إلى الأئمة من ادّعاء الغيب والمقدرة على إتيان الخوارق، ورأينا كيف يؤيد بعض الدعاة الإسماعيلية هذه المزاعم فى كتبهم. بل وكيف يرفعون بعض الأئمة إلى مرتبة النبوة، وينسبون إليهم بالفعل إتيان الخوارق والمعجزات، وكيف ينفى بعض الدعاة من جهة أخرى نسبة هذه المزاعم إلى الأئمة. ثم رأينا بعد ذلك كيف كان الخلفاء الفاطميون يتجهون إلى التعلق بمدارك الغيب، ويغلب عليهم شغف الخفاء.

على أن هذه المسألة ليست إلا ناحية واحدة من مسائل أخرى متعددة النواحى، وهى تتعلق بالدعوة الإسماعيلية ذاتها، وما يحيطها الدعاة به من ضروب الخفاء والغموض، والتوسل إلى ذلك من القول بالتأويل والدعوة الظاهرة والباطنة، والمعنى الظاهر والمعنى الباطن

ومنطوق الرموز والأرقام، وأمثال ذلك، مما يراد به أن تلقى على الدعوة الإسماعيلية، أو الدعوة الفاطمية، هالة من الخفاء والروع، تجعلها فوق إدراك الكافة.

وينقل عنان ما ورد في «المجالس المستنصرية» من إشارات عديدة إلى مسألة الظاهر والباطن، ترينا إلى أي حد كان الدعاة يعتمدون على هذه المسألة في إثارة الخفاء والروع في نفوس «المؤمنين» فمن ذلك قول الداعي في المجلس الأول: «وأرجعوا في المشكلات إلى من جعله الله بهدايتكم خير كفيل، فإن الظاهر والباطن كالروح والجسد إذا اجتمعا، انقدحت الفوائد، وعرفت المقاصد، وأدركت النفس بتوسط الحواس، ما في العالم من البدائع، فاستدلت بوجود الصنعة على معرفة الصانع»؛ وقوله في المجلس الثاني معلقا على الآية: «وذروا ظاهر الإثم وباطنه»، «فمن عبد الله تعالى بظاهر دون باطن، أو بباطن دون ظاهر، فهو كمن يعبده على حرف، لأن كل كلمة تفيد معانيها، ولا تنتهي إلى الغاية فيها خصصناكم بإعادة القول في بيان تأويلها».

ويلجأ الدعاة فضلا عن ذلك إلى رموز الأرقام، ويذهبون في ذلك مذاهب خيالية: فمن ذلك تفسير الداعي «للبسملة» وكلماتها وحروفها، وكون كلماتها الأربع، تشتمل على تسعة عشر حرفا، منها «بسم الله» سبعة أحرف، إشارة إلى الأئمة السبعة الذين في كل عصر منهم إمام يؤدي إلى أهل عصره ما أقامه الله تعالى لتأديته، و«الرحمن الرحيم»، وحروفها اثنا عشر، مثل على الحجج الاثنى عشر الذين بثهم الإمام في جزائر الأرض، الاثنتى عشرة للإبلاغ عنه، ومن التسعة عشر

حرفا التى تتكون منها البسملة، عشرة أحرف خمسة تتكرر، وخمسة لاتتكرر؛ فالخمسة التى لا تتكرر هى مثل الحدود العلوية لأنها باقية فى كل شريعة لا تتغير ولا تتكرر، والخمسة الأحرف التى تتكرر، فهى مثل الحدود السفلية التى تتردد فى كل دور.

والرموز الرقمية المفضلة لديهم هى السبعة، والاثنا عشر: فعبارة «لا إله إلا الله» بها سبعة فصول واثنا عشر حرفا، والصلاة سبع مراتب تتفاضل فيها صلاة المصلين، والإمامة فى الصلاة تجب لسبعة متفاضلى الرتب، ودعائم الإسلام سبع فرائض، واثنتا عشرة سنة.

ويعترف الأستاذ إيڤانوف بأن النظرية الإسماعيلية الباطنية كانت تنطوى على إيمان راسخ بحقيقة هذه التعليلات فى عالم المرئيات، وأن هذه الفكرة كانت بالنسبة لها فرضا لا يقبل الجدل. ثم ينوه بما كان لهذه الأفكار الخرافية من قوة هائلة تطوى أمامها الحقائق التاريخية وتثنى بلا رحمة لتوافق منطقها.

قاهـــرة الدنيـــا

في مطلع الأمر . . لم يفطن المصريون إلى حقيقة الغزو الفاطمي ومراميه البعيدة . . ولم يدركوا عمق الفجوة التي تفصلهم عن الفاطميين مذهبيا ودينيا إلا بعد أن أصبح للفاطميين في مصر دولة قوية وطيدة الأركان، ونظام حكم ثابت الجذور تحرسه جيوش مسلحةوشرطة مدربة وجواسيس ذوو خبرة في التخفي والتأثير على الجماهير، وقد نجح الفاطميون في عهدهم الأول في إخفاء مذهبهم وخاطبوا المصريين باللهجة التي يحبونها، وظهروا لهم في مظهر المخلص الذي يكفيهم فساد الحكم الإخشيدي ويرفع عنهم مظالم كافور وأولاده . . ولم يفصح الفاطميون عن نواياهم المذهبية، ولم يكشفوا عن الهدف البعيد الذي حملهم على غزو مصر والتقدم نحو الشرق لاقتحام بغداد عاصمة العالم السني وقاعدة ملك العباسيين، وإقامة الإمبراطورية الشيعية الكبرى على أساس المذهب الإسماعيلي الباطني.

وكانت الخطة المرسومة في القيروان أن تكون مصر ركيزة الإمبراطورية الفاطمية في مرحلتها الثانية، بعد أن شهدت المغرب مرحلة النشوء، وأن تكون مصر نقطة الارتكاز والوثوب نحو شرق

العالم الإسلامى، وكان هذا يقتضى أن تكون لهم فى مصر مدينة عسكرية ملكية مستقلة عن المدن والحواضر الإسلامية التى قامت فى مصر منذ دخلها الإسلام، وأن تكون المدينة الجديدة معقلا للخلفاء الفاطميين وثكنات للجيش الفاتح وموطنا لقصورهم ومساجدهم ونواديهم وحفلاتهم . . وباختصار . . تكون مسرحا لتلك الحياة الجديدة التى ستقوم فى مصر بكل ميزاتها الاجتماعية والدينية والمذهبية، ولذلك كانت المهمة الأولى لجوهر الصقلى - بعد أن بلغ الفسطاط - هى أن يضع أساسات المدينة الجديدة فى نفس الليلة، وقبل أن يجف عرق الجنود بعد رحلة الغزو المضنية كان عليهم أن يحفروا أساسات المدينة الجديدة التى شاء القدر أن تحمل اسم (القاهرة) لتكون قاهرة المعز . . أو القاهرة المعزية . . أو قاهرة الدنيا . . فافهمها كما شئت . . ولكنها كانت فاتحة عهد جديد فى تاريخ الإسلام . . ومطلع النور والعلم والحضارة فى عالم الإسلام.

لماذا مدينة جديدة بينما كان جوهر يستطيع أن يقيم بجيوشه فى الإسكندرية أضخم وأعرق مدينة مصرية؟! وأول ما صادفه فى معالم مصر بعد أن اجتاز الحدود الليبية وحط فيها الرحال يوم الاثنين ١٨ من رجب من عام ٣٥٨هـ. وكان يستطيع أن يسكن الجيزة بعد أن وصلها يوم ١١ شعبان، فهى فى موقع الوسط بين الدلتا والصعيد، وعنده النيل شريان الاتصال من الشمال إلى الجنوب، وكان يستطيع أن يقيم فى الفسطاط بعد أن بلغها يوم الثلاثاء ١٧ شعبان، وهى أول حاضرة إسلامية أقامها عمرو بن العاص بعد فتحه لمصر وقامت من حولها ضواح وتوسعات عمرانية امتدت نحو الشمال وكانت على أتم

استعداد لاستضافة الفاتحين الجدد، ولكن جوهر تجاهل كل هذه المواقع.

ولم يكد يصل إلى الفسطاط عند غروب الشمس حتى اجتازها بجيشه نحو الشمال واختار الفضاء الواقع فيما بين سفح الدراسة وشط الخليج (شارع بورسعيد حاليا) ليكون محلا للمدينة الجديدة. ولم يترك جوهر لجنوده فرصة الراحة وإنما أمرهم بحفر أساسات المدينة، وأساسات القصر الكبير الذى سيكون مقرا لسيده المعز لدين الله الفاطمى بعد أن يكتمل بناؤه.. وجعل موقع القصر فى نفس الفضاء الذى نزل فيه جيشه، وكان هذا ميلاد «القاهرة» تنفيذا لأوامر المعز لدين الله حيث قال له وهو يستعد للتوجه إلى مصر: «لتدخلن مصر بالأردية من غير حرب.. ولتنزلن فى خرابات ابن طولون، وتبنى مدينة تسمى القاهرة تقهر الدنيا..»

ماذا تفهم من العبارة السابقة التى وردت على لسان المعز لدين الله وهو يصدر لجيشه إشارة التحرك نحو مصر؟! ماذا تفهم منها إلا أن مصير العاصمة الجديدة واسمها كان قد تقرر فى بلاط القيروان قبل أن يتحرك الجيش الفاطمى لأداء مهمته التاريخية فى مصر.. ولا عبرة فى ذلك للقصة التى تتردد على ألسنة المؤرخين بشأن تسمية العاصمة الجديدة. وهى قصة مشهورة ولكنك ما أن تمعن النظر فيها حتى يتبين لك وجه التأليف و(الفبركة) فيها.

وتقول القصة كما رواها عمدة المؤرخين المقريزى أنه لما اعتزم جوهر وضع خطط القاهرة جمع المنجمين وطلب إليهم أن يختاروا طالعا لحفر الأساس، وطالعا لرمى حجارته، فجعلوا بخط السور

قوائم من خشب وبين كل قائمة وأخرى حبلا به أجراس، وأفهم البناءون أن يرموا ما بأيديهم من اللبن والحجارة ساعة تحريك الأجراس، ووقف المنجمون فى انتظار الساعة المرتقبة وأخذ الطالع، فاتفق أن وقف غراب على حبل من تلك الحبال فتحركت الأجراس، وظن الموكلون بالبناء أن المنجمين هم الذين حركوها، فألقوا ما بأيديهم من اللبن والحجارة فى الأساس، فصاح المنجمون: لا . . لا . . القاهر فى الطالع!! وفاتهم بذلك ما قصدوه . . وكان غرض جوهر أن يختاروا للبناء طالعا لا يخرج البلد من نسل الفاطميين أبدا . . فحدث أن المريخ كان فى الطالع، وهو يسمى عند المنجمين «القاهر» . فحكموا بذلك أن القاهرة لابد أن تخرج عن سلطان الفاطميين، وأن يحكمها الأتراك، فلما قدم المعز إلى مصر أخبروه بتلك القصة، وكان له خبرة بالتنجيم، فوافقهم علي هذا الافتراض وأن الترك سوف تكون لهم الغلبة على هذا البلد.

هواية التنجيم:

ولا يخفى عليك ما فى هذه الرواية من خيالات استغلت عشق الفاطميين للخفاء والغموض والأساطير . . وكان التنجيم سمة من سمات العصر كله . . وكان المنجمون جزءا من بلاط الملوك والخلفاء واليهم يعود الملوك قبل الإقدام على عمل خطير مثل إعلان حرب أو بناء مدينة أو قبول هدنة . . ولكن المهم ألا تصرفنا هذه الأساطير عن رؤية الهدف الحقيقى من بناء القاهرة، وهى أن تكون عشا للدولة الجديدة التى اعتزمت البقاء فى مصر إلى الأبد، وأن تكون ثكنة

مسلحة لصد غارات الأعداء سواءكانوا من الداخل . . أو قادمين من الخارج . . لذلك أحاط جوهر مدينته الجديدة بسور من أربعة أضلاع وجعل في كل ضلع بابين . أما البابان الواقعان في الضلع الشمالي فهما باب النصر وباب الفتوح . . والبابان الجنوبيان هما بابا زويلة . . ويمكنك أن تذهب لترى هذه الأبواب فهي لا تزال في موقعها . . ولكن لتعلم أن الأبواب الحالية ـ وهي من الأحجار ـ تشهد بفخامة البناء وروعة المعمار ليست هي الأبواب التي أقامها جوهر . . ولكنها من صنع بدر الجمالي الذي أتى إلى مصر في عصر الخليفة الفاطمي المستنصر فهدم الأبواب التي أقامها جوهر من الدقشوم وأقام تلك الأبواب الحجرية الحصينة التي تراها الآن . . وجعل جوهر في الضلع الشرقي عند سفح الدراسة باب المحروق وباب البرقية ، وجعل في الضلع الغربي المطل على الخليج باب الفرج وباب سعادة . . وسعادة هذا لا يزال اسمه قائما على الشارع الواقع خلف محكمة مصر وسجن الاستئناف ويعرف بدرب سعادة . . وإذا أردت أن تعرف من يكون (سعادة) فاعلم أنه غلام المعز لدين الله وأحد المقربين إليه . وعندما أوفده إلى مصر ـ قبل قدوم المعز ـ خرج جوهر لاستقباله عند الجيزة ثم دخل القاهرة من هذا الباب . . ومن يومها أطلق جوهر اسمه على الباب . . والذي اندثر ولم يبق منه سوى اسم سعادة على الدرب .

وفي داخل هذا السور الذي حددت لك معالمه بدأ بناء الخطط والأحياء في العاصمة الجديدة التي تناثرت حول القصر الكبير . وخصص خطة لكل قبيلة من القبائل العسكرية التي شاركت في جيش

الفتح مثل صنهاجة وكتامة وزناته . . وزويلة ومصمودة والجودرية والعطوفية (أتباع عطوف) والمنصورية وغيرهم . .

بين القصرين:

أما القصر الكبير الذى أصبح مقرا للمعز لدين الله فقد أقيم على مساحة سبعين فدانا وأمامه من الناحية الغربية أنشأ الخليفة العزيز - ابن المعز - القصر الغربى أو القصر الصغير ، وفى الأرض التى تفصل بين القصرين أقيم ميدان شاسع ، هو ميدان (بين القصرين) الشهير ، ولا يزال اسم بين القصرين موجودا على هذه البقعة التاريخية التى جعل منها نجيب محفوظ مسرحا لملحمته الأدبية العظيمة ، وفى هذا الميدان كانت تتجمع الجيوش المسافرة أو حرس الخليفة ، أو طوائف الشعب أيام الأعياد والأحداث العامة ، ولم يمض نصف قرن حتى كانت القصور الفاطمية قد نمت وبلغت من الرونق والبهاء والضخامة مبلغا عظيما . وعندما زار الرحالة الفارسى ناصرى خسرو القاهرة عام ٤٣٨هـ هاله منظر القصر الفاطمى الكبير ووصفه بأنه «قصر شاسع تراه من خارج المدينة كأنه جبل نظرا لضخامة مبانيه وارتفاعها ، ولا يمكن أن تراه من داخل المدينة إذ تحيط به أسوار شاهقة الارتفاع ويقال إن هذا القصر يضم من الحشم اثنى عشر ألف نفس ، ومن ذا الذى يستطيع أن يقول كم يضم من النساء والبنات . وهم يؤكدون أنه يضم ثلاثين ألف شخص ، ويتكون القصر من عشرة أجنحة ، وله عشرة أبواب تفضى إلى الحُرم» .

منـازل القاهـرة:

ويبدو أن القاهرة سارت فى طريق النمو الرأسى بدرجة كبيرة حتى يقول ناصرى خسرو إن المبانى والمنازل مرتفعة جدا حتى أنها تبدو أعلى من الحصن وكل منزل وكل قصر يمكن اعتباره قلعة، ومعظم المنازل تضم خمس أو ست طبقات . . ويقول إن منازل القاهرة بنيت بمنتهى الترف والعناية حتى ليمكن أن يقال إنها قد بنيت من الأحجار الكريمة وليس من الآجر (الطوب) أو الأحجار العادية . . والمنازل كلها منعزلة بحيث إن الأشجار القائمة فى أحدها لا تصل أغصانها إلى المنزل الآخر ويستطيع كل إنسان أن يهدم داره وأن يبنيها دون أن يضار أحد، وكانت القاهرة تضم ـ عندما زارها ناصرى خسرو ـ ما لا يقل عن عشرين ألف حانوت كلها من أملاك الخليفة، ومنها عدد عظيم يؤجر الحانوت منه بعشرة دنانير معزية فى الشهر، كذلك يوجد عدد عظيم يصعب حصره من الخانات والحمامات وغيرها من الأبنية العامة، وهذه كلها أيضا من أملاك الخليفة . . إذ لا يسمح لإنسان أن يمتلك منزلا أو عقارا إلا ما كان من أبنية الخليفة نفسه . . وتفهم من هذا النص أن خلفاء الفاطميين كانوا يمارسون التجارة ويحتكرون حركة الإسكان، ومن هذا وذاك كان مصدر بذخهم وترفهم .

مواكب الخـلافة:

هذه هى القاهرة كما بناها خلفاء الفاطمية، وكما رآها رحالة عابر فخلبت لبه، وكما يقول محمد عبدالله عنان فى كتابه (تاريخ الخطط المصرية) إن القاهرة فى ظل الخلافة الفاطمية شهدت ألوانا

من العظمة والبهاء والبذخ قلما شهدتها فى ظل دولة إسلامية أخرى، ومع إنها نمت بعد ذلك نموا عظيما، واتسعت جنباتها وأحياؤها حتى غدت فى القرن التاسع الهجرى أضعاف ما كانت عليه أيام الفاطميين، فإنها لم تسطع بمثل ما سطعت فى عهدها الأول، ولم تشهد مثل ما شهدت فيه من مواكب الخلافة الفخمة، ورسومها وأعيادها الباذخة، ولياليها وحفلاتها الباهرة.

كانت القصور الفاطمية آية فى الفخامة والبهاء وأن الخيال ليضطرم إلى الذورة حينما يستعرض تلك الصور الرائعة التى تقدمها إلينا الروايات المعاصرة عن عظمة الخلافة الفاطمية وروعتها فى مظاهرها العامة، وعن حياة الخلفاء الخاصة داخل القصر وأبهائه وأجنحته المنيفة، فقد كان القصر «الزاهر» وهو القصر الفاطمى الكبير يشرف من الغرب على ميدان بين القصرين، وهو الذى يتسع لعشرات الألوف من الجند والنظارة، وهو ميدان شهير فى تاريخ القاهرة المعزية شهرة ميدان القديس مرقص (سان ماركو) فى تاريخ البندقية، وقد لبث ميدان بين القصرين أيام الدولة الفاطمية مسرحا لأعظم المواكب والمظاهرات الخلافية والعسكرية، والحفلات العامة، ولبث بعد زوال الدولة الفاطمية، أعظم ميادين القاهرة، وأزخرها عمارة، وأشدها احتشادا وأنك لتستطيع أن تتبع كثيرا من أخبار الخلافة الفاطمية والشعب القاهرى فى ميدان بين القصرين . .
ولبثت القاهرة كالعروس بين مدن الإسلام جميعا تبهر العالم الإسلامى بعظمتها وغناها، وكان المجتمع القاهرى بما انتهى إليه من بذخ وترف ونعماء يجذب إليه أكابر الإسلام من كل صوب، فيثير

فيهم الإعجاب والإجلال، حتى انبهر بها العلامة المؤرخ الفيلسوف ابن خلدون عند مقدمه إليها فى سنة ٧٨٤ فوصفها بقوله: رأيت حاضرة الإسلام، وبستان العالم، ومحشر الأمم، ومدرج الذر من البشر، وإيوان الإسلام وكرسى الملك، تلوح القصور والأواوين فى جوه، وتزهو الخوانق والمدارس والكواكب بأناقة.. وتضىء البدور والكواكب من علمائه، قد مثل بشاطئ بحر النيل نهر الجنة، ومدفع مياه السماء، يسقيه العلل والنهل سيحة، ويجبى إليهم الثمرات والخيرات ثجة، ومررت فى سكك المدينة تغص بزحام المارة وأسواقها تزخر بالنعم..

جوانب خفية:

غير أن هذه الصورة البراقة المغرقة فى البهاء والترف، لم تصرف نظر الباحثين عن سبر الأغوار الخفية للفاطميين وأهدافهم الدينية والمذهبية فى مصر، بل يمكنك أن تقول إن هذا البذخ إنما كان ستارا لتغطية المبادئ والأفكار التى قامت عليها الدولة الفاطمية وأرادت أن تصوغ حياة المصريين وفقا لهذه الأيديولوجية وأن تجعل من النعيم والترف وسيلة لإغراء أهل مصر على اعتناق المذهب الإسماعيلى.
وهذه الشكوك فى مسلك الدولة الفاطمية هى التى جعلت منها لغزا محيرا فى صفحات التاريخ المصرى، فليس من شك فى أن العصر الفاطمى من أسطع عصور مصر الإسلامية إن لم يكن أسطعها جميعا ـ فى رأى عبدالله عنان ـ غير أن هذا العصر الذهبى يبعث إلى كثير من التأمل، فبينما نراه وضاء واضحا فى بعض النواحى، إذ نراه فى

بعضها الآخر مظلما مغرقا، وإذا هذه الخلافة القوية الساطعة، يكتنفها كثير من الغموض والخفاء والريب، وإذ تتبدى لنا فى هذا الصرح الساطع البراق ثغرات قاتمة لا نستطيع أن نسبر غورها أو نظفر بقرارتها، ويشتد هذا الخفاء والغموض بالأخص، كلما حاولنا أن نستعرض من هذا العصر نواحيه الدينية والمعنوية، فهنا تبدو من آن لآخر ظلمات يصعب استجلاؤها، وكانت مرحلة حكم الحاكم بأمر الله من أشد مراحل التاريخ الفاطمى خفاء وغموضا لما شهدته هذه المرحلة من أسرار غريبة وحوادث غامضة ألقت الكثير من الضوء على روح السياسة الفاطمية الدينية والمدنية.

نعم كانت الدولة الفاطمية فى مصر من أزهى العصور، ولكنها كانت من أشد الدول حرصا على أن تطبع الشعب والمجتمع بطابعها الخاص، وأن تصوغ روح الشعب وعقليته وتفكيره وحياته العامة والخاصة وفقا لمناهجها الدينية والعقلية فنرى الحياة الاجتماعية المصرية فى العصر الفاطمى تتخذ صورا ومظاهر خاصة، وتتقلب بين ألوان من البذخ والترف والبهاء قل أن نجدها فى عصر آخر من عصور مصر الإسلامية، ونراها أحيانا تمتاز بألوان من التطرف والإغراق فى الغموض، وكان الشعب المصرى على تحفظه فى مشايعة الدولة الجديدة فى مناهجها وغاياتها المذهبية.

الهيبة الدينية:

لقد كان العصر الفاطمى فى مصر أشبه بليالى ألف ليلة وليلة فى الأدب العربى، وشهد المصريون من الحفلات والليالى والأعياد

والمآدب ما خلب لبهم وخفف عنهم عناء الحياة، ولكن الخلافة الفاطمية كانت ترمى من وراء ذلك إلى غايتين :

* الأولى : أن تبث هيبتها الدينية بما تسبغه من الخطورة والخشوع على بعض المظاهر والتقاليد المذهبية .

* الثانية : أن تغمر الشعب المصرى بفيض من الحفلات والمآدب والمواكب الباهرة، وأن تأسره بمظاهر جودها الوافر، وأن تنثر عليه ما استطاعت من دواعى البهجة والمرح، وذلك لكى تكسب ولاءه وعرفانه وتأييده . ولكن كانت الخلافة الفاطمية تشعر دائما بأنها لم تكسب كل ولائه، وأن سياستها المذهبية تبث إلى نفسه شيئا من الوحشة والريب، وكان الشعب ينظر إلى هؤلاء القادمين من الغرب نظرة الشك خاصة وأنهم يزعمون أنهم ينتسبون إلى أهل البيت دون أن يكون لديهم ما يؤكد صحة هذا النسب . كما كانوا يدعون القدرة على ادعاء الغيب ومعرفة مكنونات الصدور، ولكن المصريين كانوا يسخرون من هذه المزاعم بطريقتهم التقليدية فى التنكيت .

ويروى فى ذلك أن الخليفة العزيز صعد المنبر يوما ليخطب الجمعة، فوجد رقعة مكتوبا فيها هذان البيتان من الشعر :

بالظلم والجور قد رضينا   وليس بالكفر والحماقة
إن كنت أعطيت علم غيب   فقل لنا كاتب البطاقة

يا أهلا بالفواطم

من الأخبار التى بلغت مبلغ الحقيقة التاريخية: أن المصريين رحبوا بالجيش الفاطمى، وخرجوا إلى مشارف الإسكندرية لتهنئة جوهر الصقلى بسلامة الوصول، فواصل مسيرته إلى عمق البلاد دون أن يلقى مقاومة تذكر، وأيا كان وجه الحقيقة فى ذلك فإنها حلقة غامضة من تاريخ المصريين ينبغى أن نجلى جوانبها ونعرف لماذا تخلى المصريون عن موقفهم المناوئ للتيار الشيعى منذ أحداث الفتنة الكبرى التى وقعت بعد اغتيال الخليفة عثمان بن عفان. فكيف حدث هذا التحول الجذرى؟ ولكى نكشف وجه الحق فى ذلك لابد أن ننظر فى الظروف الداخلية التى كانت عليها مصر عشية الاحتلال الفاطمى. فبعد وفاة «كافور» تعرضت البلاد لمحنة اقتصادية، واشتدت عليها الضائقة. والشعوب إذا بلغت حد اليأس وتكالب عليها المفسدون: نفضت يدها من الحاكم المحلى، ومدت يدها إلى المنقذ حتى لو كان أجنبيا، وتتزايد هذه الرغبة إذا كان الحاكم المحلى من أصول أجنبية فيستوى لديها الحاكمان من حيث الشعور القومى.

وكانت مصر فى أواسط القرن الرابع الهجرى تخضع لحكم ضابط تركى من بلاد ما وراء النهر اسمه محمد بن طغج (الإخشيد) استطاع

من خلال المنافسات العسكرية مع أقرانه أن يفوز بمصر، ويستصدر قرار تعيينه واليا على مصر من الخليفة العباسى القاهر سنة ٣٢٣ مع لقب فخيم هو (الإخشيد) أى ملك الملوك، وكان الإخشيد ـ كما يذكر المؤرخون ـ طموحا وافر الذكاء والشجاعة والعزم استطاع أن يمد نفوذ مصر إلى الشام وأرض الحرمين، وجعل من مصر دولة شبه مستقلة فى ظل الخلافة على غرار سلفه أحمد بن طولون، وفى عهد الإخشيد استقرت الأحوال بمصر، وانتظمت قواتها الدفاعية، لكن مالبثت مصر أن دخلت مرحلة الأفول بعد موت الإخشيد سنة ٣٣٤هـ، وجاء من بعده خلف ضعاف تحت وصاية العبد الخصى (كافور) الذى كان خادما للإخشيد، ومع أنه كان كثير الدهاء والعزم إلا أن عناصر الفناء أخذت تتسرب فى أركان الحكم وظهرت أمارات الذبول على الدولة، واشتدت الأزمات الاقتصادية وعم الغلاء والوباء، ويقال إن مصر فقدت من أبنائها فى تلك المحنة زهاء ٦٠٠ ألف نفس، وساد الضجر والقلق والسخط وانحطت الأخلاق، وانتشر الفساد والانحلال بين أفراد الطبقة الحاكمة حتى ليروى المقريزى فى (الخطط) تلك القصة التى يستدل بها على شيوع الفساد، وخلاصتها أن أم الأمراء (زوجة الخليفة المعز لدين الله) بعثت من تونس إلى مصر بفتاة لكى تباع فى سوق الرقيق، فعرضها وكيلها فى السوق وطلب فيها ألف دينار، فأقبلت إليه امرأة أنيقة على حمار وساومته فى ثمنها واشترتها منه بستمائة دينار، وعلم الوكيل أن هذه السيدة الأنيقة هى ابنة الإخشيد حاكم مصر، وأنها اشترت الصبية لتستمتع بها لأنها تهوى الصبايا الحسان، فلما عاد إلى تونس حدّث المعز لدين الله بأمرها، فدعا المعز شيوخ القبائل المغاربة وروى الوكيل لهم حادث

الصبية، وعندئذ قال المعـز: يا إخواننا انهضوا إلى مصر فلن يحول بينكم وبينها شيء، فإن القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها وتشترى جارية لتتمتع بها، فقد ضعفت نفوس رجالهم، وذهبت الغيرة منهم فانهضوا بنا إليهم..

تـربـص:

كـان الفـاطميـون إذن يتـربصـون بمصر، ويتـسقطون أخبـارها، ويتلمظون سعيا لاحتلالها.. كانت الدولة الفاطمية في المغرب في مرحلة الفتوة والشباب، وكانت مثل كل دولة بدائية لا تعرف الرخاوة والترف والليونة، ولم يكن الفساد قد تسرب إلى مؤسسيها الأوائل: بينما كانت مصر تعانى أشد حالات العسر الاقتصادى والفساد الأخلاقى والانهيار السياسى، وبدت نوايا الفاطميين فى احتلال مصر منذ نشأة دولتهم في (رقادة) فقاموا بغزو مصر أكثر من مرة، ولكن كانت هذه المحاولات تبوء بالفشل لأن مصر أثناء تلك المحاولات كانت تحت سيطرة رجال أشداء وزعماء أقوياء، أفسدوا خطط الفاطميين، وكانت الخلافة الفاطمية تشعر أنها وهى فى مركزها النائى فى الشمال الأفريقى، تبقى بعيدة عن تحقيق غايتها السياسية - والمذهبية الكبرى، وهو إقامة دولة شيعية كبرى تنافس دولة الخلافة العباسية فى بغداد، وتنتزع منها زعامة الإسلام، وكانت مصر فى نظر الفاطميين هى ميدان المعركة الحاسمة مع العباسيين، وقاعدة الانطلاق إلى الشام وفلسطين واليمن وأرض الحرمين لتحقيق الحلم الأكبر وهو إقامة دولة الشيعة الإسماعيلية على أسس قوية باذخة.

ولم يكن زحف جوهر الصقلي - مبعوث المعز لدين الله - هو أول زحف على مصر، فقد تكرر الزحف وتكرر الفشل، وكانت آخر هذه المحاولات سنة ٣٣٢ فى عهد الإخشيد. وكف الفاطميون عن فكرة الزحف مؤقتا حتى تتهيأ لهم ظروف النجاح الكامل، وتحقق لهم ما أرادوا بعد وفاة الإخشيد، وتدهورت الظروف الاقتصادية والاجتماعية والسياسية فى مصر، واعتمد الفاطميون اعتمادا كبيرا على ضعف الجبهة الداخلية المصرية . . وانهيار . . الروح . . المعنوية وانتشار روح اليأس والملل والإحباط واشتداد الصراع على السلطة بين قادة الجند لدرجة أن بعض هؤلاء القادة كاتبوا المعز وبعثوا إليه يشجعونه على غزو مصر ويزينون له الأمر. وكان أكبر هؤلاء المتمردين رجلا كان يهوديا قبل أن يسلم اسمه (يعقوب بن كلس) وهو من أصل عراقى، وفد على مصر زمان الإخشيد وارتقى فى المناصب إلى درجة مرموقة، ولكنه فقد نفوذه فى عهد كافور، وانتهى مصيره إلى السجن ومصادرة أمواله، ثم نجح فى الإفلات من السجن وفر إلى بلاد المعز وزين له احتلال مصر، وسوف يكون لهذا الوزير شأن كبير فى الدولة المصرية حتى يشغل أعظم منصب تنفيذى بعد منصب الخلافة، وهو منصب الوزير.

وكانت الدعوة الفاطمية تعتمد اعتمادا كبيرا على الدعاية . . ولذلك بعثت إلى مصر - قبل احتلالها - بعدد من عيونها ودعاتها وجواسيسها، كانت مهمتهم أن يضعفوا الروح المعنوية عند المصريين، ويبشروهم بالخلاص مما هم فيه من ضنك على أيدى الفاطميين، ويأخذوا عليهم سكوتهم على حكم العبد الرقيق (كافور) ويعتبروا

ذلك مخالفا لطبائع الأمور، وفى ذلك يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه (الحاكم بأمر الله وأسرار الدعوة الفاطمية: لقد كان من سخرية القدر أن يتولى حكم مصر أسود خصي هو كافور، وقد كان لهذا الحدث الفذ فى تاريخ مصر الإسلامية، بلا ريب، وقع عميق فى جرح الشعور القومى، وكانت الدولة الفاطمية تجذب إليها الأنظار بقوتها وغناها، وكان سواد الشعب المفكر يؤثر الانضواء تحت لواء دولة قوية فتية تستظل بلواء الإمامة الإسلامية كالدولة الفاطمية، على الاستمرار فى معاناة هذه الفوضى السياسية والاجتماعية، وهكذا ألفى الفاطميون حين مقدمهم إلى مصر، جواً ممهداً يبشر بتحقيق الفتح المنشود على خير الوجوه.

المتهـــــاونون:

ولما ذاعت الأنباء بوصول العساكر الفاطمية إلى الأراضى المصرية اشتد الاضطراب في مصر، وكثر الخلاف فى الرأى، فرأى جماعة من الزعماء والجند من أنصار بنى الإخشيد وكافور أن يحاولوا رد الغزاة بقوة السيف، وأخذوا يتأهبون للقتال، ولكن معظم الزعماء المصريين آثروا مهادنة الفاتحين والتفاهم معهم، وقرّ رأيهم على أن يتقدموا إلى جوهر بطلب الأمان والصلح، واتفقوا مع الوزير جعفر ابن الفرات على أن يتولى تلك المهمة، وسألوا أبا جعفر مسلم بن عبدالله الحسينى أن يكون سفيرهم لدى الفاتح، فأجابهم إلى ذلك، وسار على رأس جماعة من وجهاء مصر إلى لقاء جوهر، فلقيه على مقربة من الإسكندرية، فى قرية تعرف بأتروجه (أواخر رجب سنة ٣٥٨)

فاغتبط جوهر بمقدمهم، وأجابهم إلى ما طلبوا، وكتب لهم أمانا يعتبر وثيقة هامة فى الكشف عن غايات السياسة الفاطمية وأصولها المذهبية، وفيه ينوه بمزايا الحماية الفاطمية على مصر ويقول لأهلها:

«إن أمير المؤمنين لم يكن إخراجه للعساكر المنصورة والجيوش المظفرة، إلا لما فيه إعزازكم وحمايتكم والجهاد عنكم، إذ قد تخطفتكم الأيدى، واستطال عليكم المستذل، وأطمعته نفسه بالاقتدار على بلدكم فى هذه السنة، والتغلب عليه، وأسر من فيه، والاحتواء على نعمكم وأموالكم حسب ما فعله فى غيركم من أهل بلدان المشرق، وتأكد عزمه، واشتد كلبه، فعاجله مولانا وسيدنا أمير المؤمنين صلوات الله عليه بإخراج العساكر المنصورة، وبادر بإنفاذ الجيوش المظفرة دونكم، ومجاهدته عنكم وعن كافة المسلمين ببلدان المشرق، الذين عمهم الخزى وشملتهم الذلة، واكتنفتهم المصايب وتتابعت الرزايا».

ثم يشير جوهر إلى ما أوعز به أمير المؤمنين «من نشر العدل» وبسط الحق، وحسم الظلم، وقطع العدوان، ونفى الأذى، ورفع المؤن، والقيام فى الحق، وإغاثة المظلوم مع الشفقة والإحسان وجميل النظر، وكرم الصحبة ولطف العشرة وافتقاد الأحوال، وحياطة أهل البلد فى ليلهم ونهارهم» وما أمر به مولاه «من إسقاط الرسوم الجايرة، وأن أجيزكم فى المواريث على كتاب الله وسنة نبيه ﷺ، وأضع ما كان يؤخذ من تركات موتاكم لبيت المال من غير وصية، وأن أتقدم فى رم مساجدكم، وتزيينها بالفرش والإيقاد، وأن أعطى مؤذنيها وقومتها ومن يؤم الناس فيها أرزاقهم».

الأمـــان:

ويشير جوهر بعد ذلك إلى المسألة الدينية، فيقول «إن الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة، وهى إقامتكم على مذهبكم، وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم، والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم، وفقهاء الأمصار التى جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم، وأن يجرى الأذان والصلاة وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه، والزكاة والحج والجهاد، على ما أمر الله فى كتابه، ونصه نبيه ﷺ فى سنته، وإجراء أهل الذمة على ما كانوا عليه، ولكم على أمان الله التام العام الدائم، المتصل الشامل الكامل، المتجدد المتأكد على الأيام، وكرور الأعوام، فى أنفسكم وأموالكم، وأهليكم ونعمكم، وضياعكم ورباعكم، وقليلكم وكثيركم.. وعلى أنكم تصانون وتحفظون وتحرسون.. إلخ» ويختتم جوهر أمانه بدعوة المصريين إلى لقائه والسلام عليه، والتزام الطاعة لأمير المؤمنين.

وفى هذا الأمان الذى أصدره جوهر لأهل مصر، فضلا عن التنويه بما سرى إلى شئون الحكم من فساد، وما يعانيه الشعب من مظالم ومتاعب، وما يزعمه أمير المؤمنين من إقامة العدل، وتأييد الشريعة وإصلاح المرافق والشئون، إشارة ظاهرة إلى خطر القرامطة الذين كانوا قد اجتاحوا الشام يومئذ، وأخذوا يهددون مصر، وقد كان الخطر حقيقيا لا ريب فيه، ولو لم يبادر الفاطميون إلى احتلال مصر، لسقطت قبل بعيد فريسة هينة فى يد أولئك الغزاة السفاكين،

بل لم يمض على وجود الفاطميين بمصر زهاء عامين، حتى اضطروا إلى لقاء القرامطة فى أرض مصر ذاتها، ولم يردوهم عنها إلا بعد جهد جهيد.

على أن جوهرا اضطر مع ذلك إلى خوض بعض المعارك قبل أن يتم فتح مصر، ذلك أن فلول الإخشيدية والكافورية ومن والاهم من الجند لم يقبلوا الأمان، وآثروا أن يقوموا بمحاولة أخيرة للدفاع عن سلطانهم الذاهب، فاختاروا لهم أميرا، واحتشدوا لقتال جوهر بالجيزة، ولما وصل الجيش الفاطمى إلى الجيزة ألفى القوى الخصيمة تتهيأ لرده عن عبور النيل، فدفع جوهر بعض قواته فاجتازت النيل خوضا، ونشب القتال بين الفريقين، فانهزم الإخشيدية بعد أن قتل منهم عدد كبير، ولاذوا بالفرار، وتم الفتح الفاطمى لمصر (منتصف شعبان سنة ٣٥٨).

واستجاب جوهر إلى رغبة المصريين مرة أخرى، فجدد لهم الأمان، وذهب الوزير ابن الفرات، والشريف أبو جعفر إلى لقائه على رأس العلماء والكبراء، وسار جوهر فى ركبه المظفر إلى عاصمة مصر، فى عصر يوم الثلاثاء ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ (٧ يوليو سنة ٩٦٩م) «وعليه ثوب ديباج مثقل، وتحته فرس أصفر» وشق مدينة مصر (الفسطاط) ونزل فى بسيط شاسع يقع فى ظاهرها من الشمال الغربى، وفى مساء نفس اليوم الذى تم فيه ذلك الفتح العظيم، وضع جوهر تنفيذا لأوامر سيده المعز، فى نفس المكان الذى نزل فيه، خطط المدينة الجديدة، التى قرر الفاطميون إنشاءها لتكون لهم فى مصر قاعدة ومعقلا، وحفر أساس القصر الفاطمى فى وسطها، واختطت

القبائل الشيعية حول القصر كل قبيلة بخطة عرفت بها كزويلة وكتامة وبرقة وغيرها.

* * *

ولعل فيما قرأت ما يكفى لكى يوضح لك سر ترحيب المصريين بالفاطميين رغم اختلاف المذهب والعقيدة والمزاج والتكوين النفسى والثقافى.

الحاكم بأمر الشيطان

فى عام ١٠٠٠ ميلادية - مطلع الألفية الثانية - الموافق ٣٩٠ هجرية كانت مصر تحت حكم الخليفة الفاطمى الشهير الحاكم بأمر الله، وكان عمره إذ ذاك لا يتعدى الخامسة عشرة، وهى سن لا تؤهل صاحبها لتحمل مسئولية الحكم والإمامة، إلا أن نظام الوراثة فى العقيدة الإسماعيلية كان يحصر الإمامة فى الأعقاب ولو كانوا أطفالا - وقد أدى ذلك إلى أيلولة الحكم إلى عـــدد من الغلمـــان والمراهقين كـــان أشهرهم وأكثرهم غرابة وشذوذا، دون منازع، الحاكم بأمر الله فقد تولى الحكم وعمره أحد عشر عاما إثر وفاة أبيه الخليفة «العزيز» عام ٣٨٦ هجرية الموافق ٩٩٦ ميلادية، وتولى الوصاية عليه أستاذه ومعلمه «برجوان» لمدة أربع سنوات فقط، انتهت بانقلاب التلميذ على أستاذه وقتله غيلة كى ينفرد بالحكم دون وصاية أو إرشاد من أحد.

وفى رأى كثير من المؤرخين أن هذا الحادث كان بداية تحول الحاكم بأمر الله إلى طاغية جبار لم يشهد التاريخ له نظيرا فى غرابة الأطوار، والاستهانة بالدماء، إلا أن هذا العام - مطلع الألفية الثانية - شهد أيضا حادثا أشد هولا وأفدح أثرا من حادث اغتيال برجوان . . ذلك هو عزم الحاكم بأمر الله على نقل مناسك الحج إلى مصر، ونقل رفات

النبى صلى الله عليه وسلم ـ وصاحبيه أبى بكر وعمر رضى الله عنهما من المدينة المنورة إلى القاهرة لتكون هى العاصمة الروحية للمسلمين بدلا من البلد الحرام.

ولا شك أن هذا التفكير الشاذ الذى بدا من الحاكم بأمر الله وهو فى هذه السن الصغيرة، كان إرهاصا ومؤشرا على حالة الخلل العقلى التى أصابته منذ وقت مبكر، ثم صاحبته طوال حياته، وانتهت به إلى تأليه ذاته، واعتقاده بأن روح الله تجسدت فيه، وهى العقيدة التى ابتدعها فلاسفة الفرس الإسماعيليون، وصادفت هوى عند الحاكم بأمر الله، وأسفرت عن ظهور الديانة الدرزية التى تعتقد فى ألوهية الحاكم بأمر الله ورجعته.

أما قصة نقل الحج إلى مصر فنجدها فى كتاب «الدولة الفاطمية فى مصر» للدكتور أيمن فؤاد سيد، تبعا لرواية أوردها الجغرافى الأندلسى أبو عبيد البكرى المتوفى سنة ٤٨٧ هجرية، وهى السنة التى مات فيها الخليفة المستنصر ـ حفيد الحاكم ـ ودلالتها أنه كان قريب العهد من عصر الحاكم بأمر الله، وربما كان شاهدا على هذا الحادث، وخلاصته أن الحاكم بأمر الله شيد فى المنطقة الواقعة بين الفسطاط والقاهرة ثلاثة مشاهد لينقل إليها رفات الرسول ـ ﷺ ـ ورفات الشيخين أبى بكر وعمر، ولم يحدد البكرى تاريخ هذه المحاولة، ورغم أن المصادر الفاطمية والدراسات القائمة عليها لا تشير بأى حال إلى هذه المحاولة، فإن المؤرخ ابن فهد المكى المتوفى سنة ٨٨٥هـ ـ ١٤٨٠م، والمؤرخ المصرى «الجزيرى» بعده بنحو قرن من الزمن، لم يتركا أى شك فى أن هذا المشروع الفاشل قد تم فى سنة ٣٩٠هـ ـ ١٠٠٠م.

* وتفيدنا هذه الرواية، التى تقترب من رواية البكرى، بأن أحد الزنادقة قد أشار على الحاكم بأمر الله، بنبش قبر النبى - ﷺ - وصاحبيه وحملهم إلى مصر، وبذلك يشد الناس رحالهم من أقطار الأرض إليها، ويذكر البكرى أن الحاكم بذل أموالا لرجال من شيعته نجحوا فى حفر سرداب أسفل الدور المجاورة لمنزل الرسول - صلى الله عليه وسلم - مقابل القبر، غير أن أهل المدينة لم يلبثوا أن علموا بما فعلوه وبنواياهم، فقتلوهم ومثلوا بهم، ثم رصفوا تلك الحفرة بالحجارة وأفرغوا عليها الرصاص بحيث لا يطمع فى الوصول إليها طامع أبدا، إلا أن رواية ابن فهد فى كتابه «إتحاف الورى بأخبار أم القرى» ورواية الجزيرى فى كتابه «الدرر الفرائد المنظمة» تفيدنا بأن الحاكم بأمر الله عهد إلى أمير مكة «أبى الفتوح الحسن بن جعفر الحسنى» بهذه المهمة، فمضى إلى المدينة وأزال عنها إمرة بنى الحسين بحجة قدحهم فى نسب الفاطميين، وجلس فى مسجد المدينة، وحضر إليه جماعة من أهلها بلغهم ما جاء من أجله، ومعهم قارئ يعرف بالركبانى فقرأ آيات من سورة التوبة تدعو إلى مقاتلة أئمة الكفر والناكثين بأيمانهم، فثار الحاضرون على مندوب الحاكم «أبو الفتوح» وكادوا يفتكون به، ولم يمنعهم من ذلك إلا خوفهم من العواقب، خاصة أن أرض الحرمين كانت للفاطميين، ولم يكد يمضى بقية النهار: «حتى أرسل الله ريحا كادت الأرض تزلزل منها حتى دحرجت الإبل بأقتابها والخيل بسروجها وهلك خلق كثير من الناس». . وقد فسرت هذه الكارثة الكونية على أنها غضب من الله. . وأفلت أبو الفتوح من حرج المهمة التى جاء من أجلها واعتبرها حجة عند الحاكم تبرر فشله فى تنفيذ ما أمره به.

غير أن فشل هذه المحاولة لم يمنع الحاكم بأمر الله من أن يعاود من جديد حرمان المدينة من ذخائر مقدسة أخرى، إذ أن فكرة تحويل قوافل الحج نحو العاصمة الفاطمية ـ القاهرة ـ يرفعها إلى مصاف المدن المقدسة، أصبحت جزءا من سياسة الفاطميين، وعلى الأخص الحاكم، ففى سنة ٤٠٠هـ ـ ١٠١٠م أوفد الحاكم أحد الزنادقة، واسمه «ياروختكين العضدى» إلى المدينة المنورة لينقب فى دار الإمام جعفر الصادق ـ والتى لم يجرؤ أحد على فتحها بعد وفاته فى عام ١٤٨هـ ـ عن الذخائر التى تحتوى عليها، وقد جمع ياروختكين ما وجده فى الدار وعلى الأخص مصحف، وحامل من خشب مطوق بحديد ودقة خيزران وحربة وسرير، فحمل جميع ذلك إلى القاهرة وصحبه جماعة من شيوخ الطوبيين، فلما وصلوا إلى الحاكم نفحهم بقليل من المال، ورد عليهم السرير وأخذ الباقى قائلا إنه أحق به منهم، ومن بين هذه الذخائر قطعة من حصير كانت تستخدم كسجادة صلاة للخلفاء فى وقت صلاة الفطر، ولم تكن هذه الذخائر الوحيدة التى احتفظ بها الفاطميون، فقد كان عندهم أيضا «ذو الفقار» سيف على بن أبى طالب، وسيف الحسين بن على، ودرقة حمزة بن عبدالمطلب، وسيف جعفر الصادق.

طاغية رهيب:

لقد تضاربت أقوال المؤرخين حول شخصية الحاكم بأمر الله، فهو فى رأى البعض مثال للنزاهة والعدالة والتعفف عن صغائر الأمور، والجدية فى الإدارة والحزم فى محاسبة اتباعه من الوزراء والكبراء،

وفى رأى آخرين يبدو الحاكم بأمر الله فى صورة الطاغية المحب لسفك الدماء، المتقلب الأهواء، وربما كانت أوصافه الشخصية تلقى بعض الضوء على تصرفاته، فقد كان منذ حداثته يتمتع ببنية قوية متينة، ويبدو بمظهر الجبابرة، مبسوط الجسم، مهيب الطلعة، له عينان كبيرتان سوداوان تمازجهما زرقة، ونظرات حادة مروعة كنظرات الأسد لا يستطيع الإنسان صبرا عليها، وله صوت قوى مرعب يحمل الروع إلى سامعه، ويقول عند ساويرس بن المقفع: كان منظره مثل الأسد، وإذا نظر إلى الإنسان يرتعد لعظم هيبته، وكان صوته جهرا مخوفا، ويقول الإنطاكى: كان إذا أشرف على جماعة سقطوا على الأرض وجلا منه.

أما الأستاذ محمد عبدالله عنان فيصف عصر الحاكم بأمر الله بأنه أغرب عصر فى تاريخ مصر الإسلامية، وربما كان أغرب عصر فى تاريخ الإسلام كله، عصر يمازجه الخفاء والروع، وتطبعه ألوان من الإغراق والتناقض، مدهشة مثيرة معا، ولكن هذه الألوان الخفية المغرقة، وهذه النواحى المتباينة هى التى تسبغ على العصر أهميته وطرافته، وهى التى تحيط شخصية الحاكم بحجب كثيفة من الظلمات يصعب اختراقها.. والرواية الإسلامية تقدم إلينا الحاكم فى صورة مروعة مثيرة، فتقدمه إلينا أولا فى صورة جبار منتقم، وسفاك لا يخبو ظمؤه إلى الدماء، ثم تقدمه إلينا فى صورة طاغية مضطرم الأهواء والنزعات، متناقض الرأى والتصرفات لا تكاد تلمس لأعماله باعثا أو حكمة، شرس جموح، ميال إلى الشر، خئون وافر الغدر، لا يستقر على ثقة أو صداقة، وتقدمه الينا على العموم فى ثوب شخصية بغيضة خطرة، فاقدة الاتزان والرشد، يغلب عليهما

الجانب الأسود ولكنها مع ذلك لا تنكر عليه بعض نواحى الخير والخلال الحسنة، فتصفه بالجود والتقشف، والزهد فى كثير من متاع الحياة الدنيا.

يقول عنه الوزير جمال الدين فى كتاب «أخبار الدول المنقطعة» إنه كان سيئ الاعتقاد، كثير التنقل من حال إلى حال.. يؤاخذ على اليسير من الذنب.. حادا.. لا يملك نفسه عند الغضب، فأفنى أمما وأجيالا.. ويقول عنه المكين ابن العميد: كان ردىء السيرة، فاسد العقيدة مضطربا فى جميع أموره، يأمر بالشىء ويبالغ فيه، ثم يرجع عنه ويبالغ فى نقضه، ويقول عنه صاحب «مرآة الزمان»، «وكانت خلافته متضادة بين شجاعة وإقدام، وجبن وإحجام ومحبة للعلم وانتقام من العلماء وميل إلى الإصلاح وقتل الصلحاء وكان الغالب عليه الصلاح، وربما بخل بما لم يبخل به أحد قط».. ويصفه ابن خلكان فى كتاب «وفيات الأعيان» بأنه كان جوادا، سمحا، خبيثا، ماكرا، ردىء الاعتقاد، سفاكا للدماء، قتل عددا كبيرا من كبراء دولته صبرا، وكان عجيب السيرة، يخترع كل وقت أمورا وأحكاما يحمل الرعية عليها، ويقول عنه ابن خلدون: «وكان حاله مضطربا فى الجور والعدل، والإخافة والأمن والنسك والبدعة».

والمعروف أن جميع وزراء الحاكم بأمر الله قتلوا على يديه بأبشع وسائل القتل، باستثناء واحد هو الوزير النصرانى زرعة بن عيسى بن نسطوروس، الذى شغل الوزارة لمدة سنتين ولقب بالشافى، فلما مات ميتة طبيعية أفلت بها من بطش الحاكم، غضب الحاكم غضبة كبيرة على هذه النهاية التى لم يكن له فيها يد، ويقول المقريزى: إن

الحاكم تأسف على موته من غير قتل وقال: «ما أسفت على شيء قط، أسفي على خلاص ابن نسطوروس من سيفي، وكنت أود لو ضربت عنقه لأنه أفسد دولتي، ونافق عليّ».

* وللحاكم بأمر الله قصة دموية مروعة مع خادمه «غبن» وكاتبه الجرجرانى، وكان «غبن» من الخدم السود الذين يؤثرهم الحاكم بعطفه ومحبته وثقته، فعينه رئيسا للشرطة والحسبة والنظر فى جميع الأموال والأحوال، ومنحه لقب «قائد القواد» وسطع نجمه حتى أنه لما مرض، ركب الحاكم لعيادته، وبعث إليه خمسة آلاف دينار وخمسة وعشرين فرسا، غير أن هذه المظاهر لم تحل دون نكبته، فسخط عليه الحاكم وأمر بقطع يده اليسرى، وبعد قليل سخط عليه مرة أخرى فأمر بقطع يده الأخرى فحملت فى طبق إلى الحاكم وبعث إليه الحاكم بالأطباء للعناية به وأغدق عليه مالا وتحفا كثيرة، ولم تمض سوى أيام قلائل حتى أمر بقطع لسانه، فقطع وحملوه إلى الحاكم أيضا، ومات «غبن» متأثرا بهذه القطائع الفظيعة، أما كاتبه الجرجرانى فقد أمر الحاكم بقطع يديه ولكن أبقى على حياته فعاش بقيتها أقطع اليدين.

* فعل الحاكم بأمر الله كل هذه الفظائع وهو لم يزل فى مطلع شبابه، ولم يجاوز العشرين من عمره، وأصبحت نزعاته وتصرفاته مصدر قلق واضطراب ولم يك ثمة ريب - كما يقول الأستاذ عنان - فى أن القتل كان فى نظر الحاكم خطة مقررة، ولم يكن فورة أهواء فقط، وقد لزم الحاكم هذه الخطة الدموية طوال حياته، ووقعت فى الأعوام التالية حوادث ومناظر من القتل الذريع لا نهاية لها، وكانت تقترن بضروب مروعة من القسوة، وهكذا هبت على المجتمع القاهرى ريح

من الرهبة والفزع وأصبح اسم هذا الخليفة الفتى مثار الرعب فى نفوس الناس. .

كبيرة الكبائر:

* إلا أن كبيرة الكبائر التى ارتكبها الحاكم: هى ادعاؤه الألوهية. . ورعايته للدعوات الإلحادية التى هبت على مصر من جانب دعاة الفرس الإسماعيليين الذين وجدوا فى شخصية الحاكم واضطرابه العقلى، فرصة سانحة للكشف عن أغراضهم الخبيثة فى هدم الإسلام، وصارت مصر مهدا خصبا لطائفة من الدعاة السريين، والدعوات المذهبية والإلحادية المغرقة، وكان الحاكم من وراء هذه الدعوات يرعاها ويرقب تطوراتها حتى استحالت فى أواخر عهده إلى دعوة جريئة إلى «ألوهيته» وتمخضت هذه التيارات الخفية عن عاصفة دموية مروعة اختتم بها ذلك العهد الحافل بصنوف المفاجآت والأحداث العجيبة، ثم كانت ذورة الخفاء، وكان ختام المأساة، فغاض الحاكم من هذا العالم فى ظروف كالأساطير، وأسبغ الخفاء على ذهابه حجبا كثيفة من الغموض كتلك التى أسبغها على حياته وعلى شخصيته كلها.

لقد نكب الشعب المصرى فى الأعوام الخمسة عشر الأولى من عهد الحاكم من الحوادث والمفاجآت السياسية والدينية، ما لم يسمع به من قبل فى أى مجتمع مسلم، فرأى القتل الذريع يخمد كل صوت أو رأس يرتفع، والاضطهاد المنظم يحطم الطوائف والأقليات، والقوانين الصارمة تقلب أوضاع الحياة الاجتماعية، وقد احتمل

الناس كل شيء في صبر وجلد، ودفعوا من حرياتهم وأموالهم ودمائهم ثمن الاحتجاج والتذمر، ولم يبق إلا أن يشهد الحوادث تجرى في طريقها المحتوم.

كانت الإمامة الفاطمية في عصر الحاكم تتشح برداء القدسية الرهيبة، وتستحيل الدعوة المذهبية إلى نوع من الفلسفة الحرة أو بعبارة أخرى إلى معترك من الإلحاد المغرق وكان الحاكم هو روح هذا التطور الخطير في توجيه الدعوة الفاطمية فأنشأ «دار الحكمة» لتكون مركزا لتلقين الدعوة الإلحادية في نظم ومراتب من أغرب وأروع النظم السرية التي عرفها التاريخ.

الإلحاد من بلاد الفرس:

كيف نشأت الدعوة إلى ألوهية الحاكم بأمر الله؟

في أوائل عام ٤٠٨هـ (١٠١٧م) ظهر بمدينة القاهرة رجل يدعى حمزة بن علي الزوزني دعا إلى ألوهية الحاكم بأمر الله، وشرح دعواه في عدة كتب ورسائل غريبة، وكل الروايات المعاصرة لا تقدم لنا سوى إشارات موجزة عن هذا الملحد الجريء. وقد استقى الأستاذ عبدالله عنان معظم التفاصيل المتعلقة بالرجل ودعوته من رسائله الخطية القديمة وتبين منها أنه فارسي من مقاطعة «زوزن»، وكان في بدء أمره عاملا يشتغل بصنع اللباد، وأنه وفد إلى القاهرة عام ٤٠٥هـ وانتظم في سلك الدعاة الذين كانت تغص بهم القاهرة يومئذ وخاض غمار الجدل الديني والدعوات السرية التي كانت تضطرم بها،

ويلاحظ الأستاذ عنان أن معظم الدعاة والملاحدة الذين خرجوا على الإسلام وحاربوه باسمه ينتمون إلى أصل فارسى، ومنهم عبدالله بن ميمون القداح مؤسس الأسرة الفاطمية.

وفى رسائل حمزة ما يلقى بعض الضياء على شخصيته وطبيعة دعوته ومهمته، فهو بلا ريب من أكابر الدعاة السريين الذين اتصلوا بالحاكم بأمر الله وعقدوا معه أوثق الصلات وتلقوا وحيه أو استوحوا دعوته واستلوا فى بثها برعايته، وكان لهم أكبر الأثر فى التوجيه الخفى للدعوة، وكان حمزة نفسه أيضا فى صفة «النبوة» ويصف أعماله بالمعجزات.

وعكف حمزة على بث دعوته سرا ولم يجاهر بها إلا فى أواخر سنة ٤٠٧هـ، وعندئذ يبدو على مسرح الحوادث الظاهرة ويلازم الجلوس جهرا فى مسجد «تبر» بالمطرية ويدعو جهراً إلى عبادة الحاكم بأمر الله وينادى بالتناسخ فى الأديان والشرائع وبالحلول، ويزعم أن الحاكم ليس بشرا وإنما هو رمز حل فيه الإله فاجتمع إليه طائفة كبيرة من غلاة الشيعة الإسماعيلية، وتلقب بهادى المستجيبين، وخلع على الحاكم لقب «قائم الزمان» وأوفد دعاته فى أنحاء مصر والشام، ورخص فى أحكام الشريعة وأباح نكاح الأمهات والبنات وسائر المحارم، وأسقط جميع التكاليف فى الصلاة والصوم وغيرهما، فاستجاب له كثير من العامة، وكثر جمعه وذاع أمره، وكان الحاكم حين يمر ركبه بالمسجد، يخرج إليه حمزة ويحادثه طويلا على انفراد، ولم يلبث أن أولاه الحاكم رعايته بصورة ظاهرة، وبعث إليه وإلى أتباعه بالسلاح ليدافعوا عن أنفسهم وقت الحاجة، إذ كانوا يتوجسون

شرا من الناس، ثم تمادى حمزة في مشروعه فاتخذ له بطانة قوية من الدعاة والرسل، ولقب أحدهم وهو إسماعيل بن محمد التميمى بلقب «سفير القدرة» وأنفذه لأخذ البيعة من الرؤساء والكبراء للحاكم فى صفته الجديدة التى أسبغها عليه حمزة وشيعته، أى باعتباره «قائم الزمان» فكان الكثير منهم يضطر إلى التظاهر بالقبول خوفا من البطش والانتقام.

وفى نفس الوقت الذى أعلن فيه حمزة هذه الدعوة الجريئة، ظهر عدة من رسله وتلاميذه، وفى مقدمتهم حسن بن حيدرة الفرغانى المعروف بالأخرم ومحمد بن إسماعيل «الدرزى» وكان لهما شأن عظيم فى تلك الحركة، وكان الدرزى فى المبدأ حليفا لحمزة وداعيته، ولكنه انقلب إلى منافسته وخصومته، أما الفرغانى «الأخرم» فقد ظهر بعد حمزة بقليل، ودعا إلى التناسخ والحلول وألوهية الحاكم، وأرسل بمضمون نظريته إلى العلماء والفقهاء والأكابر، وذاعت دعوته بسرعة فى جماعة من المغامرين والمرتزقة، فاستدعاه الحاكم وخلع عليه وأركبه فرسا مطهما، وسيره فى موكبه، وأولاه عطفه ورعايته، بيد أنه لم تمض على ذلك أيام قلائل حتى لقى الأخرم مصرعه بينما كان يسير فى ركبه بالقاهرة، فوثب عليه رجل من أهل السنة وأرداه قتيلا، فتفرق أصحابه، وانهارت دعوته ونهبت دار الأخرم وطورد أنصاره فى كل مكان، وغضب الحاكم لذلك أيما غضب وأمر بإعدام القاتل فى الحال، وكفن الأخرم بأكفان من القصر الفاطمى ودفن فى حفل رسمى وحمل أهل السنة قتيلهم ودفنوه مكرما، وهرع الناس أياما لزيارة قبره، ولكن القبر نبش بعد أيام، واختفت جثته بتعليمات من الحاكم.

إلا أن مقتل الفرغانى الأخرم لم يضع حدا للدعوة الإلحادية، ولم تفتر حماسة الدعاة الملاحدة رغم ثورة الشعب المصرى وتحفزه للفتك بهم، وكان محمد بن إسماعيل الدرزى وهو من أصل تركى - أقوى رسل حمزة وأشدهم عزما وجرأة فزعم أن روح آدم قد انتقلت إلى روح علىّ بن أبى طالب، ومنه إلى روح الحاكم صفوة سلالته، وشرح أصول دعوته ومذهبه فى رسالة إلى الحاكم فقربه وأغدق عليه، واشتد نفوذه حتى غدا ملاذ الكبراء، وتظاهر بعض الكافة من الجهلاء والمرتزقة وبعض الذميين والمنافقين بقبول هذه الأفكار الملحدة طمعا فى نفع الحاكم أو اتقاء لشره، وكان هؤلاء إذا لقوا الحاكم قالوا له: السلام عليك يا أحد.. يا محيى.. يا مميت.. وأمثال ذلك من عبارات الكفر. ولكن عامة الشعب المصرى سخطت على هؤلاء الكفرة وطاردوهم أينما ذهبوا.. وفى يوم ١٢ من شهر صفر عام ٤١١هـ ركب فريق من أتباع حمزة على الخيول ودخلوا مسجد عمرو وهم يجاهرون بمذهبهم، واحتل ثلاثة من الملاحدة منصة القاضى، وأخذوا يدعون الناس إلى فكرتهم فضج الناس بالتكبير والتهليل ولما حضر القاضى إلى المسجد قدم إليه أحد الملاحدة رقعة من حمزة أولها: باسم الحاكم لله الرحمن الرحيم ويأمره فيها بالاعتراف بألوهية الحاكم، فرفض القاضى وثار الناس، ووثبوا على الملاحدة الثلاثة وفتكوا بهم، وانطلقوا يلاحقون أصحاب حمزة فمزقوهم تمزيقا، وقتلوهم أشنع قتل.

مولد الدرزية

جاء الفاطميون إلى مصر يحملون معهم مذهبًا دينيًا لم يكن للمصريين سابق معرفة به، وهو المذهب الإسماعيلى الباطنى الذى يختلف اختلافا جذريًا عن مذهب أهل السنة الذى أخذ به المصريون، وقد استخدمت الدولة الفاطمية كل فنون الحيل والدعاية والإغراء لاستمالة المصريين وإقناعهم بالانتماء إلى مذهبهم، ولكن المصريين بحكم تراثهم الوسطى المعتدل ونفورهم من المغالاة والتطرف وقفوا موقف الشك والتربص من هذه الدعاوى الغريبة، ورفضوا الاندماج فى مذهب الدولة الرسمى، باستثناء قلة انتهازية تظاهرت بالإسماعيلية تحت ضغط الحاجة وبعد أن جعلت الدولة الانتماء إلى مذهبها شرطًا للحصول على الوظائف الحكومية.

والمصادر الشيعية نفسها لا تنكر أن الفاطميين دخلوا مصر يرافقهم التعصب لمذهبهم، وأنهم أكرهوا الناس على اعتناق مذهبهم الإسماعيلى الباطنى وترك غيره من المذاهب التى اعتقدها أهل مصر منذ الصغر «راجع كتاب الشيعة فى التاريخ، للشيخ محمد الحسين الزين» حتى إذا جاء الحاكم بأمر الله بلغ التعصب مداه مع دخول المذهب مرحلة جديدة، بل وصل إلى نقطة تحول فى مسار الدعوة

الإسماعيلية التى كانت تقف عند حدود إضفاء العصمة على الإمام، فأصبحت الآن تدعو إلى تأليه الإمام «الحاكم بأمر الله» على اعتبار أن الله قد حل فيه، وهى الدعوة التى كشف عنها أحد دعاة المذهب هو إسماعيل الدرزى الذى نفذ بجلده وهرب إلى الشام فراراً من انتقام الجماهير المصرية التى ثارت احتجاجًا على الدعوة الإلحادية.

كان الحاكم بأمر الله قد أنشأ «دار الحكمة» على مقربة من مسجده الملاصق لباب الفتوح لتكون هذه الدار أشبه بالأكاديمية يجتمع فيها فلاسفة المذهب الإسماعيلى للعكوف على تطوير المذهب ومده بروافد فلسفية جديدة، وكان دعاة المذهب يقبلون من كافة الأنحاء للانضمام فى سلك مجالس الحكمة التأويلية التى ينظمها شيوخ المذهب للدارسين فى حلقات سرية. وفى عام ٤٠٥ هجرية وفد إلى مصر رجل من دعاة الإسماعيلية الفرس اسمه حمزة بن على الزورنى، نسبة إلى زَوْزَنْ وهى من بلاد فرس. وانضم إلى زملائه الفرس فى دار الحكمة، وما لبث هذا الرجل أن أصبح ممثلا لهم فى البلاط الفاطمى، وهمزة الوصل بينهم وبين الحاكم بأمر الله الذى اكتشف فيه الإخلاص فضمه إلى حاشيته، وأسكنه قصره، وبلغ حمزة منزلة عالية فى سلم التنظيم الإسماعيلى السرى، وأصبح واحدًا من «الحرم الأربعة» الذين كانوا أشبه بأركان حرب الإمام، فيكونون فى معيته دائمًا ولا يفارقون مقر قيادته أبدًا، وسرعان ماأصبحت له حظوة عند الحاكم لما بذله من جهد فى تقوية أواصر الدعوة وتركيز دعائمها فى فارس، كما أنه ساهم فى خوض غمار الجدل الدينى وفلسفة المذهب الذى يبشر به، واستطاع بما أوتيه من

حنكة ودراية ودهاء وخيال خصيب أن يجمع حوله بعض الدعاة ويتفقوا سرًا للدعوة إلى تأليه الحاكم بأمر الله، معتمدا فى دعوته الجديدة على أصول وأحكام استنبطها من صميم الأصول والأحكام الإسماعيلية.

فالدعوة إلى تأليه الحاكم بزغت من خيال هذا الداعى الإسماعيلى حمزة بن على الذى اتفق مع بعض زملائه الفرس على عدم الجهر بها إلا فى الوقت الذى يراه حمزة مناسبًا، ولكن أحد زملاء حمزة، وهو الداعى محمد بن إسماعيل الدرزى، تسرع فى الكشف عن أسرار الدعوة الجديدة مما أثار حفيظة حمزة فطرده من حلقته وشنع عليه بإنه كان يتطلع إلى منافسة حمزة وشغل المنصب السامى الذى كان يشغله فى بلاط الحاكم.

البداية:

تلك هى الظروف التى نشأت فيها الدعوة إلى تأليه الحاكم بأمر الله، والتى انبثقت منها الدعوة الدرزية التى حملها محمد بن إسماعيل الدرزى بعد فراره من مصر إلى الشام. ولكن بعض المصادر الدرزية والباطنية تتنصل من فكرة تأليه الحاكم وتعتبر ذلك من قبيل التعصب الذى يحمله كتاب المذاهب السنية للمذهب الإسماعيلى، ولذلك آثرت أن أعتمد فى شرح أسس الدعوة الدرزية على المصادر الإسماعيلية نفسها حتى أتجنب الاتهام بالتعصب أو التحامل عند الاعتماد على المصادر السنية، وسيكون عمدتنا فى ذلك أحد المصادر العصرية فى الفكر الإسماعيلى والتى لا يتطرق الشك إليها فى

التعاطف مع الدعوة الدرزية باعتبارها ابنا شرعيا للدعوة الإسماعيلية الباطنية، وهذا المصدر هو كتاب «الحركات الباطنية فى الإسلام» ومؤلفه هو الدكتور مصطفى غالب من سوريا، وهو أحد أساطين المذهب الإسماعيلى، وإليه يرجع الفضل فى الكشف عن المخطوطات والمؤلفات السرية التى لا تزال محفوظة عند شيوخ الإسماعيلية فى سوريا واليمن والهند، ويرفضون لأحد من خارج المذهب الاطلاع عليها، وقد نشر الدكتور غالب فى مؤلفه المذكور عدداً من الرسائل التى كتبها الدعاة الأوائل فى العصر الفاطمى، والتى تحمل اعترافًا صريحًا بألوهية الخليفة الفاطمى الحاكم بأمر الله، وليس من المعقول أن أنقل إليك شيئًا من هذه الرسائل فهى مغرقة فى الغموض، ولكنى أكتفى بعرض تعليقات الدكتور مصطفى غالب ومنها تستطيع بلوغ المراد.

فقد نشر فى كتابه نص وثيقة مخطوطة هامة عثر عليها بين مجموعة من المخطوطات الإسماعيلية التى يملكها وهى: «رسالة مباسم البشارات بالإمام الحاكم» صنفها فيلسوف الدعوة الإسماعيلية الأكبر أحمد حميد الكرمانى، باعتبارها وثيقة تاريخية هامة تتحدث عن اختلاف الدعاة بسبب ظهور الدعوة الجديدة التى نشرها الحمزة بن على الزوزنى وأتباعه، والمقصود بالدعوة الجديدة: الدعوة إلى تأليه الحاكم.. وبعد أن فرغ المؤلف من عرض الرسالة التى شغلت ثلاثين صفحة عقب عليها بما يلى:

فى هذه الرسالة زبدة آراء الإسماعيلية بالإمامة وبالإمام الحاكم بأمر الله بالذات، وتصديقا لما ذكرناه آنفا بأن الإسماعيلية يعتبرون

الإمامة رياسة نفسانية روحانية، ودرجة قدسانية ينالها الأئمة بتأييد الله تعالى، لذلك نجد مؤلف هذه الرسالة شيخ فلاسفة الإسماعيلية وحكيمها الأكبر أحمد حميد الدين الكرماني يصر على أن الإمام الحاكم بأمر الله «عليه السلام» ليس إلا إماما في وقته، وقائداً لأهله، وقائما في زمانه، وشفيعاً للمتعلقين بحبله، وقد اعتبر الكرماني، من وجهة النظر الإسماعيلية، أن أفعال الحاكم هي أفعال مظلمة حيرت العقول، وأظلمت المقاصد، لأنها عذاب وامتحان لأهل الدعوة عظيم، ومن الملاحظ أن الكرماني قد شعر بما وصلت إليه الدعوة نتيجة للخلاف الشديد الذى نشب بين الدعاة، فانقسموا إلى عدة فرق واضطربت أحوالهم بسبب الآراء الجديدة التى تدعو بصراحة إلى تأليه الإمام الحاكم بأمر الله. ويعقب على ذلك بقوله:

«ومما لا شك فيه بأن الإمام الحاكم بأمر الله «عليه السلام» هو عند الدروز بشر فى الأعين المجردة، ويعيش بين الناس كما يعيش غيره من البشر، ولكن الإله المعبود اتخذ لنفسه صورة «إنسية» سماها الناس الحاكم بأمر الله، مثل ما يتخذ الإنسان ثيابه فيرتديها، ثم ينزعها ويرتدى غيرها، والثياب ليست من جنس من يرتديها ولا تشبهه فى شىء، وكذلك الإله المعبود ليس من جنس الصورة التى اتخذها، ولا هى شبيهة به، وهو يظهر فى هذه الصورة الناسوتية المتغيرة، ففى كل عصر ظهر فيه اتخذ صورة ناسوتية تختلف عن الأخرى.

رمــــوز:

هذه خلاصة الرموز والاصطلاحات التى وردت فى الكتب

الدرزية المقدسة والتى تذكر أن للإمام الحاكم بأمر الله حقيقة لاهوتية لا تدرك بالحواس ولا بالأوهام، وهى نفس الرموز والاصطلاحات التى وردت فى أكثر الكتب الإسماعيلية التى تبحث فى كنه الخالق جل وعلا وطريقة توحيده، ويزعم الدكتور مصطفى غالب أن الدروز فى ذلك لا يختلفون عما يقول به جمهور المسلمين من السنة والشيعة، وهو ينعى على الذين فسروا المصطلحات التأويلية الباطنية التى وردت فى الكتب الدرزية المقدسة تفسيراً غرضيا ويتهم هؤلاء المفسرين بأنهم يقصدون من وراء ذلك إطلاق الإلوهية على شخص الحاكم بأمر الله بالذات بينما غاب عن مفهوم هؤلاء بأن الدروز فى توحيدهم لمعبودهم لا يخرجون عن توحيد المسلمين لخالقهم سبحانه وتعالى «!!».

وأنت ترى من هذا التناقض براعة الإسماعيلية فى تأويل أفكارهم، وادعائهم بأنها لا تخرج عن أصول التوحيد عند بقية المذاهب الإسلامية، وحجتهم فى ذلك أن المذاهب الأخرى لم تتسلح بالفلسفة ووقفت من التفكير الفلسفى موقف المتردد، أما الإسماعيلية فقد ألقوا بأنفسهم فى خضم التيارات الفلسفية واعتبروا ذلك شكلا من أشكال الانفتاح والتحرر الفكرى، ولكنهم فى شططهم وشطحاتهم الفلسفية خلعوا ربقة الإسلام - كما يقول الشيخ أبو زهرة - وأطرحوا معانيه، ولم يبقوا لأنفسهم منه إلا الاسم، أما الدكتور مصطفى الشكعة فيرى أن عقائد الإسماعيلية ليست مستمدة بشكل مباشر من الكتاب والسنة، وإنما دخلتها فلسفات أثرت فيها مثل الفيثاغورية «نسبة إلى الفيلسوف الإغريقى فيثاغورس» والأفلاطونية

الحديثة «نسبة إلى الفيلسوف السكندرى أفلوطين» فكما أن الفيثاغوريين جعلوا الأعداد أصولا لفلسفتهم، كذلك فعل الإسماعيلية حينما جعلوا الأعداد أصولا لعقيدتهم، فظهرت عندهم الأعداد وما يقابلها من أصول دينية، فالواحد عندهم هو العقل الكلى أو القلم، والاثنان هما: العقل الكلى والنفس الكلية، أى القلم والروح، والثلاثة هم: محمد وعلى وفاطمة، والخمسة هم: القلم واللوح وميكائيل وإسرافيل وجبريل، وهم محمد وعلى وفاطمة والحسن والحسين، وهم الإمام والحجة والداعى والمأذون والمكاسر. . وهكذا بنوا عقيدتهم على الأعداد وهى الفلسفة الفيثاغورية التى كان المسلمون قد عرفوها نتيجة لنشاط الترجمة من اليونانية، فانتشرت فى الأقطار الإسلامية فالتقطها الإسماعيلية وبنوا عقيدتهم على أساسها وصبغوها بالصبغة الإسلامية.

وكما تأثر الإسماعيلية بالفلسفة الفيثاغورية تأثروا أيضًا بنظرية أفلاطون التى تقول بأن ما فى العالم الحسى أشباح لمُثل فى العالم العلوى، والإسماعيلية تقول إن ما فى عالم الدين مُثُل لمثولات فى العالم الروحانى، وأيضًا أخذ الإسماعيلية عن أفلوطين السكندرى نظريته فى الإبداع وظهور النفس الكلية عن العقل الكلى، وأن العالم خلق بواسطة اللوجوس «الكلمة» فقال الإسماعيلية أن الكلمة التى خلق عنها العالم هى كلمة «كن» التى وردت فى الآية الكريمة «إنما أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له كن فيكون» وأن كلمة «كن» مكونة من الكاف والنون، فالكاف رمز على القلم أو العقل الكلى، والنون رمز على اللوح أى النفس الكلية، ولذلك فسر الإسماعيلية قوله تعالى «نون

والقلم» أن الله عز وجل يقسم بأعز مخلوقين عنده وهما اللوح والقلم.

ويطول بنا المقام لو تتبعنا أصول الفكر الإسماعيلي في الفلسفات الأجنبية، ولكنها في النهاية تكون صورة من الوان شتى تتمازج أو تتنافر حسب براعة حامل الريشة، وإذا كانت تنتسب إلى الإسلام، فإن مبادئ الإسلام وعقائده، كما يقول الدكتور الشكعة، أسمى من كل تلك الفلسفات وأرفع من أن ترتبط بها أو تتذرع بما تضمه بين دفتيها، فالعقيدة الإسلامية شريعة سماوية، وأما تلك الفلسفات فأفكار أرضية دنيوية.

خـــلاف:

ونعود سريعا إلى أوليات القرن الخامس الهجري لنرى ما كان من أمر الخلاف الذي نشب بين مؤسسي الدعوة الدرزية: حمزة بن علي وزميله محمد بن إسماعيل الدرزي، ونفهم من الروايات الإسماعيلية أن حمزة عرض على أعوانه الاستجابة إلى دعوته الجديدة ولكنهم شرطوا عليه أن يأتيهم بتوقيع الإمام الحاكم بأمر الله، مما يعني أن الحاكم كان على علم بدعوة حمزة وإنه كان على اتصال وثيق به وعلى العموم يُشتمّ من رسائل حمزة بأنه قد تمكن سرا من استمالة عدد كبير من الدعاة إلى جانبه، وبعد أن نظم دعوته الجديدة ووضع لها المراتب والحدود - على النمط الإسماعيلي - أمر الكل بالستر والتقية وبعدم البوح بشيء مما يضمرون، ولكن الدرزي اختلف مع حمزة على مناصب الدعوة ونازعه الرئاسة والألقاب وذهب إلى إنه أفضل وأحق

من حـمـزة، فلمـا فـقـد الدرزى الأمل فى تحـقـيق أطمـاعـه تسـرع فى الكشف عن أسرار الحركة الجديدة قبل أن يجهر بها حمزة، ويقال إن داعية آخر هو الفرغانى جهر بالدعوة وكتب الرقاع إلى العلماء يطلب منهم الدعـوة إلى ألوهـيـة الحـاكم، فـاسـتـدعـاه الحـاكم وأكـرمـه ومنحه الأعطيات وأركبه فرسـا مطهـما وسيره فى مـوكبه، غير أنه لم تمض على ذلك عـدة أيام حـتى وثب على الفـرغـانى رجل من أهل القـاهرة وقتله وقتل معه ثلاثة رجال من أتباعه فغضب الحاكم بأمر الله وأمر بإعدام القاتل ودفن الفرغانى على نفقة القصر فى موكب رسمى.

ونفهم من ذلك أن الدعوة إلى الوهية الحاكم بدأت تثير غضب أهل القـاهرة، وأن كـان الدكـتـور مـصطفى غـالب يقـول فى كـتـابه : إن دعاة المذهب الجديد ظلوا ينشرون دعوتهم فى الخفاء ويدعون الناس سراً لمبادئهم وتعـاليـمـهم فـاسـتـجـاب لهم «خلق كـثيـر»، حتى قـام الدرزى وأعلن الدعـوة فى سنة ٤٠٧هـ مما أدى إلى انقـسـام الدعـاة والمؤمنين بالمذهـب الجـديد إلى فريقين : فـريق الدرزى، وفريق حـمـزة. وتقـول حـوادث التـاريخ إن الدرزى قـام ومـعـه ٥٠٠ من أتبـاعه بزيارة قصـر الحـاكم بأمـر الله فهـاجـمـهـم جـمـوع الناس والجند وقتلوا منهم نحـو أربعين رجلا وهرب البـاقـون، وفى اليـوم التـالى هاجـم الغـوغـاء مقر حمزة فى مسجد ريدان وكان معه اثنا عشر رجلا فقط، وكادوا يُقتلون لو لم يصـدر الحـاكم أمراً بوقف القـتـال. أما الدرزى فـقـد تضـاربت الأقـوال حوله، فـالأنطاكى وابن العـمـيـد، يذكـران أنه قـتل فى الثـورة سنة ٥٠٠هـ. أما ابن البطريق فيذهب إلى أن أحد غلمان الأتراك وثب عليه وهو فى مـوكـب الحـاكم فقتله ثم نـهبت داره، وافـتـتنت القـاهرة،

وأغلقت أبوابها ولبثت الفتنة ثلاثة أيام وقتل فيها جماعة من الدرزية، ولكن حمزة بن على يذكر فى رسائله بأن أصحاب الدرزى قد اعتقلوا وأودعوا السجن، وقيل إن الدرزى استطاع أن يفلت من قبضة الغوغاء ويهرب من مصر ثم توجه إلى وادى التيم بالشام، وظل يبشر أهل الجبال بدعوته. ولذلك عرف أهالى هذه المنطقة الذين اعتنقوا دعوته «بالدروز» ويقال إن الحاكم بأمر الله هو الذى أمره بالرحيل إلى هذه المنطقة فى الشام، وزوده بالمال اللازم ليكون فى مأمن من الثورة التى اجتاحت القاهرة بسبب دعوته الإلحادية.

ثورة القاهرة:

بعد اختفاء «الدرزى» خلا المسرح لخصمه حمزة الزوزنى الذى اتخذ من مسجد (تبر) بالمطرية مقراً سرياً للاجتماع بأعوانه وبث دعوة الإلحادية، ولم يكن هذا الاختيار اعتباطا، فقد كانت المطرية فى ذلك الوقت من المناطق المهجورة البعيدة عن حركة الجماهير فى القاهرة، ولكن أهل القاهرة تعقبوه حتى عرفوا وكره الجديد، فهاجموه، وأحرقوا باب المسجد ولكنه احتمى وراء باب من الحجر، والقصة يرويها حمزة نفسه ولكن فى القالب الخرافى الذى برع فيه الإسماعيلية: وأضفى عليه مسحة من الخوارق والمعجزات الباطنية التى هى سمة من سمات الفكر الإسماعيلى فيقول: «إن الباب الحجرى القوى هو خوخة ضيقة لا يستطيع أحد أن يدخلها إلا إذا كان من أصحابها وأربابها.. وقد اجتمع عند المسجد سائر الأتراك بالجواشن والزرد والخوذ (وهى من عدد الحرب) ومن جميع العساكر

والرعية زايد عن عشرين ألف رجل. وقد نصبوا على القتال بالنفط والنار، ورماة النشاب والحجارة، ونقب الجدار والتسلق إلى الحيطان يوم كامل، وجميع من كان معى فى ذلك اليوم اثنا عشر نفسا، منهم خمسة شيوخ كبار، وصبيان صغار لم يقاتلوا، فقتلنا من المشركين (يقصد المسلمين من أهل السنة) ثلاثة أنفس، وجرحنا منهم خلقا عظيما لا يحصى، حتى طال على الفئة القليلة الموحدة (يقصد أتباعه) القتال، وكادت الأرواح تتلاشى، وتبلغ التراقى..».

الخلاص من الحاكم:

ماذا تستنتج من هذه القصة التى يغلب عليها الطابع الأسطورى؟

إنها تؤكد المعنى الذى يهمنى التركيز عليه، وهو انتفاضة المصريين على دعاوى الإلحاد، الأمر الذى أدى إلى زعزعة الدولة الفاطمية، وتعريض العرش الفاطمى للسقوط، لولا تدخل (ست الملك) أخت الحاكم بأمر الله، فسارعت بتدبير مؤامرة للخلاص من أخيها المعتوه، فاختفى فى ظروف غامضة أثناء إحدى جولاته الليلية فى تلال المقطم، وجاء اختفاء الحاكم بأمر الله ليضع الخاتمة المأساوية لهذا الشاب المغرور الذى لم يتعظ من درس فرعون حين قال (أنا ربكم الأعلى).. وكانت نهاية كل منهما متشابهة.. ذاك ابتلعه اليم فكان من المغرقين، وهذا التقمه المقطم فكان من الغابرين. وإن كان أتباعه «الدروز» لا يزالون حتى يومنا هذا يعتقدون فى عودته أو رجعته طبقًا للمعتقدات الشيعية.

تلك حلقة من حلقات التاريخ المصرى فى مطلع الألفية الثانية لم تأخذ حقها فى الذيوع والانتشار، برغم أهميتها القصوى فى الكشف عن صلابة الشعب المصرى، ورفضه الصارم لكل ما يمس عقيدته الخالصة فى التوحيد، والمؤسف أن هذه الصفحة المجيدة - من تاريخ مصر فى العصر الفاطمى - ضاعت فى زحام الدعاية التى يروج لها بعض أنصار الفاطمية عن الأعياد والاحتفالات والسهرات والنفحات وأصناف الحلوى التى كانت سمة من سمات العصر، ولم تكن كل هذه المباهج إلا ستاراً لإخفاء حقيقة الدعوة الفاطمية وما تحمله من أسرار غريبة وأفكار شاذة، ومعتقدات مناقضة للعقيدة الإسلامية الخالصة، ولم تكن دعوى ألوهية الحاكم بأمر الله إلا تطوراً طبيعيًا للفكر الإسماعيلى الذى جاء به الفاطميون، وظل خافيا عن الشعب المصرى طوال عهد المعز لدين الله، وابنه العزيز، ثم كشفت عن وجهها السافر فى عهد الحاكم بأمر الله.

كانت الدعوة المذهبية الفاطمية تأخذ شكلا علنيا فى الجامع الأزهر وتتظاهر بأنها لا تناقض عقيدة أهل السنة، وتتوازى مع هذه الدعوة العلنية الظاهرية، (مجالس الدعوة) السرية وتجرى فى دهاليز القصر الفاطمى، حيث يعكف فقهاء المذهب الإسماعيلى على تدريب وتنظيم الدعاة لينطلقوا إلى الأمصار وهم مدربون على فنون الدعاية لكسب الأنصار، وتهيئة الجماهير لقبول مذهبهم، وكان تلقين الدعوة الإسماعيلية هو أخطر مهمة يقوم بها الدعاة تحت إشراف الخليفة الفاطمى، حتى يمكن القول أن نظام الحكم الفاطمى كان أشبه بجمعية

سرية هدفها هدم الإسلام من داخله تمهيداً لإقامة الدعوة الإسماعيلية التى تستمد أصولها من مذاهب وتيارات فلسفية مناقضة للإسلام. فلما جاء الحاكم بأمر الله أقام دار الحكمة لتكون مقراً لفلاسفة المذهب من كافة الأصقاع الإسماعيلية وفارس بصفة خاصة، ووضع الخطط والتوجيهات والنظم التى تحقق الغرض النهائى للدعوة. ويبدى الأستاذ محمد عبد الله عنان دهشته من أن تتخذ الخلافة الفاطمية هذه الخطوة الجريئة على يد الحاكم بأمر الله، وهو صاحب الذهن المضطرم الهائم، ولكن هذا الذهن كان بطبيعة تكوينه وميوله، واتجاهه إلى عوالم الخفاء والغيب: حريا باتخاذ هذه الخطوة وكانت ظروف العصر، واتساع نطاق الدعوة الفاطمية، واضطرام المعركة المذهبية بين الخلافة الفاطمية وخصومها، مما يدعو إلى قيام هذا المعهد، ليشرف بطريقة منظمة على بث الدعوة الفاطمية وتوجيهها، وهو «دار الحكمة المصرية». ولهذه التسمية مغزى يدل على الاتجاه الفلسفى الحر، الذى أريد أن يتخذه هذا المعهد، أو بالحرى هذه الجامعة الغريبة، ذلك لأن دار الحكمة كانت جامعة حقة تضم عدة كليات دينية وعلمية وأدبية، وأفردت للجامعة الجديدة دار كبيرة ملاصقة للقصر بجوار «باب التبانين» وتضم أقساماً: للقرآن، والعلوم الدينية، والفلك، والطب، والنحو وعلوم اللغة، وعُين لها أقطاب الأساتذة فى كل علم وفن. ورصدت لها الأموال الجمة. ووقف الحاكم بأمر الله عليها قسما من أملاكه الخاصة.

* فى البداية: اتخذت دار الحكمة طابعا حراً، فدعى إليها الأساتذة من الشيعة والسنة، وقرئت بها فضائل الصحابة، ولكن-

فيما بعد - أبعد عنها أساتذة السنة، وقتل بعضهم، وتأكدت بذلك صفتها المذهبية الخالصة، ولم يكن هذا المظهر العلمى فى الواقع إلا ستاراً للغاية الأصلية التى أنشئت دار الحكمة لتحقيقها، وهى بث الدعوة الفاطمية السرية بطريقة علمية منظمة، تمتزج فيها النظريات والآراء الفلسفية، بالأصول والمبادئ المذهبية، وتكون أبعد أثرا فى غزو الأذهان والعقائد من مجالس الحكمة التى كانت تعقد فى القصر، وبهذا تجتمع جهود الدعاة فى مركز رئيسى يحتشد فيه الإسماعيليون من كل صوب، ليقوموا بواجبهم فى حمل الدعوة وبثها فى سائر المجتمعات والأنحاء.

الدعوة السرية:

ومن الحقائق التاريخية الثابتة أن الخلافة الفاطمية كانت لها دعوة مذهبية خاصة، وهذه حقيقة سجلها مؤرخو الدولة الفاطمية أنفسهم كالمسبحى، وكان صديقا للحاكم بأمر الله، أو المقريزى الذى عرف عنه تعاطفه مع هذه الدولة. . ولكن ماذا كان موضوع تلك الدعوة الفاطمية؟

لقد حفظ لنا المؤرخون المتأخرون مثل النويرى والمقريزى شذورا ضافية من محتويات الدعوة السرية وتفاصيلها. . ومن الطبيعى أن تكون مادتها الأولى ما تقوم عليه الدعوة الشيعية الفاطمية من الأصول والمبادئ وأن تعرض شئون النبوة والإمامة والعقيدة الدينية طبقا لهذه الأصول، ولكن من خلال الدراسات القيمة التى قام بها المؤرخ الأستاذ محمد عبد الله عنان نكتشف أن الدعوة الفاطمية تذهب إلى

أبعد من ذلك، وأنها تستحيل فى النهاية إلى عقيدة فلسفية حرة مشبعة بألوان واضحة من الإنكار والإلحاد. وتجرى على نسق الجمعيات السرية فى تسع مراتب متدرجة فى الأهمية والخطورة، يعرضها الدعاة بالتعاقب، طبقا لاستعداد التلاميذ وأهليتهم لتلقيها، فلا يصل إلى مراتبها العليا إلا من كان موضع الثقة، حريصاً على السر، وكان من الأولياء المخلصين.

ولا يتسع المقام لشرح هذه الدعوات التسع، التى تتدرج شيئًا فشيئًا من خلال عملية مسخ المخ، وإزالة الثوابت الدينية المستقرة، حتى تنتهى إلى خلع عقيدة الإسلام، وإسقاط التكاليف الشرعية، وهى توضح لنا أن الدعوة الفاطمية السرية لم تكن سوى دعوة فلسفية صيغت بمنتهى الذكاء والمهارة، ونظمت مراتبها بدقة مدهشة تنم عن براعة أولئك الذين صاغوها، وفهمهم العميق لنفسية الكافة، وبراعتهم فى التأويلات الباطنية والشروح الإلحادية، ولا ريب أن الخلافة الفاطمية كانت ترمى إلى غاية سياسية أكثر منها دينية، وهى حشد العالم الإسلامى تحت زعامتهم وتوكيد سلطانهم، واتخاذ التنظيم السرى أداة لغزو العقول والعقائد. من طريق الدين والفلسفة الكلامية، وقد استنبط الفاطميون فكرتهم من الدعوة الباطنية أو الإسماعيلية السرية التى نظمت فى أواخر القرن الثانى الهجرى فى جنوب فارس، وأسفرت بادئ بدء عن فورة القرامطة فى البحرين، وقد نشأت هذه الدعوة ونظمت مبادئها السرية لأول مرة على يد جماعة من الثوريين الملاحدة المجوس الذين تظاهروا بالإسلام وعملوا على غزو العقيدة الإسلامية وهدمها. ونشر المجوسية بالتأويلات التى

يتأول بها دعاتهم على القرآن والسنة، واعتبار أن لكل شيء ظاهراً وباطنًا، حتى القرآن الكريم نفسه، جعلوا له ظاهراً وباطنًا، أما الظاهر: فهو دلالات ألفاظه العربية حقيقة أو مجازا، وأما الباطن فهو ما وراء هذا الظاهر أو هذه الدلالات، وهذا لا يفهمه - في زعمهم - إلا أئمة المذهب. وهذا الباطن لا تقيده دلالات الألفاظ العربية، ومعانيها اللغوية، وليس الظاهر إلا رموزاً وإشارات لا يفهمها العوام، الذين هم أهل السنة في نظرهم، فأهل السنة بكل علمائهم بدءا من الصحابة الكرام حتى الآن - إنما هم عوام وجهال في نظرهم لأنهم لا يعلمون علمهم الباطن، وقد أدت بهم هذه النظرة الباطنية التي تأويل معاني القرآن الكريم تأويلا غريبا يناقض دلالات اللغة العربية، وقد أورد الدكتور عبدالمنعم النمر نماذج لهذه التأويلات الشاذة منها ما قالوه في تفسير قوله تعالى في سورة نوح: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّاراً ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَاراً ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَاراً﴾ فزعموا أن المراد من قوله: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ﴾ اسألوه أن يطلعكم على أسرار المذهب الباطني، ومن قوله «يرسل السماء» المراد بالسماء «الإمام»، والماء المدرار: العلم ينبع من الإمام، ومن قوله «يمددكم بأموال» الأموال هي العلم، و«البنين» هم المستجيبون للدعوة «ويجعل لكم جنات» فالجنات هي الدعوة السرية الباطنية. والأنهار هي العلم الباطني.

ومثل آخر عن تأويلهم للآية الكريمة في سورة الحشر ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنسَانِ اكْفُرْ﴾. فقالوا: إن الشيطان هو عمر،

والإنسان هو أبو بكر. ومعنى: اكفر.. لا تؤمن بخلافة عليّ بن أبي طالب.

ومثل ثالث: «الشمس والقمر بحسبان». الشمس والقمر هما الحسن والحسين، وإبليس وآدم في القرآن هما: أبو بكر وعليّ.

العقـــل الكلى:

.. وعلى هذا المنوال أولوا كثيرا من المصطلحات العلمية، كما ذكر ابن الجوزى فى كتابه عن (القرامطة) الذين زعموا أن كل ما ذكر من التكاليف فرموز إلى باطن، فمعنى الجنابة عندهم: مبادرة المستجيب بإفشاء الأسرار قبل أن ينال رتبة الاستحقاق، ومعنى الاغتسال من الجنابة: تجديد العهد على من فعل ذلك، ومعنى الزنا: إلقاء نطفة العلم الباطنى إلى نفس من لم يسبق معه عقد العهد، ومعنى الاحتلام: إفشاء السر فى غير محله، ومعنى الصيام: الإمساك عن كشف السر، ومعنى البعث: الاهتداء إلى مذهبهم الباطنى. ومعنى الحج: زيارة الإمام.

ويرى الدكتور محمد كامل حسين أن الإسماعيلية جعلوا للأئمة صفات باطنية بحيث أصبح الأئمة عندهم فى مرتبة لا تمت إلى البشرية بصلة بالرغم من إلحاح كتابهم فى القول بأن الأئمة من البشر وأنهم خلقوا من طين ويتعرضون للآفات والأمراض والموت مثل غيرهم، ولكننا نجد فى تأويلاتهم الباطنية أن الإمام هو «وجه الله» و«يد الله» و«جنب الله» وأنه هو الذى يحاسب الناس يوم القيامة

فيقسمهم بين الجنة والنار، وأنه هو «الصراط المستقيم» و«الذكر الحكيم» و«القرآن الكريم» إلى غير ذلك من الصفات، والإسماعيلية الذين تحدثوا عن الإمام على هذا النحو، نراهم قد جردوا الله سبحانه وتعالى من كل صفة، فتوحيد الله عندهم هو بنفى جميع ما يليق بمبدعاته (التى هى الأعيان الروحانية) ومخلوقاته (التى هى الصور الجسمانية) من الأسماء والصفات، فأسماء الله الحسنى التى نسبها الله تعالى لنفسه فى القرآن الكريم، لا تقال لله تعالى، بل جعلوها للعقل الكلى الذى تحدث عنه الفلاسفة، ووصفوا هذا العقل الكلى بكل صفات الكمال على نحو ما ذكره الفلاسفة الأقدمون تماما، وصبغوا هذه الأقاويل القديمة بالصبغة الإسلامية. فالخالق عند الإسماعيلية إذن هو العقل الكلى والنفس الكلية، وبمعنى آخر: إن ما يقوله المسلمون عن الله سبحانه وتعالى خلعه الإسماعيلية على العقل الكلى، فهو «الإله» عند الإسماعيلية. ويقابله فى العالم الأرضى «الإمام» ومعنى هذا عندهم أن كل الصفات التى خلعت على العقل الكلى هى أيضًا صفات وأسماء للإمام، فالإمام إذن هو: الواحد، الأحد، الفرد، الصمد، المنتقم، الجبار.. إلخ، ولذلك خاطب ابن هانى الأندلسى الشاعر للمعز لدين الله الفاطمى:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهار

عصر المستنصر
بـداية النهـاية

يمثل عهد الخليفة «المستنصر بالله» نقطة التحول فى تاريخ الدولة الفاطمية والانتقال بها من عصر القوة والازدهار، إلى عصر الضعف والاحتضار وجرت على الدولة الفاطمية سنة الحياة التى تجرى على الدول والحضارات، كما تجرى على الكائنات الحية، فقد عبرت الدولة الفاطمية مرحلة الفتوة والشباب فى عهد خلفائها الأوائل: المعز لدين الله وابنه العزيز وحفيده الحاكم بأمر الله حتى إذا جلس المستنصر - حفيد الحاكم - على عرش الخلافة فى عام ٤٢٧هـ. كان الخط البيانى للدولة قد بدأ يميل نحو الأفول والانحدار خاصة أن فترة حكم المستنصر (٤٢٧ - ٤٧٨هـ) بلغت ستين عاما، وهى أطول فترة قضاها حاكم فى تاريخ الإسلام.

لقد آلت الخلافة إلى «المستنصر» بعد أبيه «الظاهر» وفقا لنظام «الإمامة» الشيعى الذى يعتمد انتقال الإمامة من الأب إلى الابن الأكبر بصرف النظر عن سن الوريث، وعندما ساقت الأقدار «المستنصر» إلى هذا المنصب الدينى والسياسى الخطير، كان طفلا صغيراً لا يزيد عمره على سبع سنوات فكان أمرا طبيعيا أن تنتقل السلطات إلى أمه،

وكانت جارية سوداء اشتراها الظاهر فولدت له ابنهما «المستنصر» وآلت إليها مقاليد الأمور وصارت المهيمنة على كل شئون الدولة . . تحكم وتتحكم نيابة عن ابنها الطفل .

كانت مصر فى ذلك الوقت تعانى من الصراع الدموى بين طوائف الجند الذين جلبهم الخلفاء الفاطميون من شتى الأجناس، وجعلوا منهم قوام الجيش، كان هناك بقايا المغاربة الذين جاءوا فى جيش «جوهر» أثناء فتح مصر سنة ٣٥٨هـ وبعد نضوب المورد المغربى لجأ الفاطميون إلى جلب الأتراك، وكانت كل طائفة تعمل على تثبيت نفوذها، والحصول على أكبر قدر من الامتيازات، وكان الوزراء يشعلون نار الصراع بين قادة الجند فيقربون أحد الفريقين ليكون سندا لهم فى لعبة الصراع على النفوذ، وكانت أم المستنصر تعمل على تغيير الوزراء واستبعادهم أو تقريبهم بصورة لم يسبق لها مثيل . حتى بلغ عدد الوزراء الذين تولوا السلطة التنفيذية أربعة وخمسين وزيرا خلال فترة زمنية لا تزيد على ستة عشر عاما . وازدادت الأحوال سوءا عندما زجت أم المستنصر بنفسها فى صراعات الجند ولجأت إلى شراء العبيد السود من أصل جنسها لتكبح بهم جماح المغاربة والترك، وصار الجند السود يمثلون الضلع الثالث فى مثلث الصراع، حتى بلغ عددهم خمسين ألف جندى كانت تمدهم بالمال والسلاح والامتيازات، مما جعل البلاد مسرحا للفوضى، وبلغت حدة الصراع ذروتها عندما قبضت أم الخليفة يدها عن دفع مرتبات الجند الترك، وعجزت عن الوفاء بمرتباتهم المتراكمة والتى بلغت ٤٠٠ ألف دينار، فما كان من هؤلاء إلا أن كبسوا على شوارع القاهرة ينهبون المتاجر،

ويقتحمون البيوت، ويسلبون المارة، بل لم يتورعوا عن اقتحام قصر الخلافة ونهب مافيه من تحف ثمينة ونادرة تعويضا عن مرتباتهم المقطوعة.

نهبوا قصر الخليفة:

يروى القاضى الرشيد بن الزبير فى كتابه (الذخائر والتحف) وصفا للمقتنيات التى نهبها الجند «من خزائن قصر أمير المؤمنين المستنصر بالله حين تغلب المارقون على دولته، واستباح المنافقون ما وجد فى بيت ماله وحوزته واقتسم قادتهم دور المكس (الجمارك) والجبايات، فإنه لم يخرج بمثله فيما تقدم من الدول منذ ظهر الإسلام إلى وقتنا هذا نفاسة وجلالة وغرابة وكثرة وحسنا وملاحة وجودة وسناء قيمة وغلة ثمن، على أن الذى أخرج يسير من كثير، وقليل من جليل، حتى أنه نقل منه مياسير التجار إلى سائر الممالك ما صار جمالا للملوك إلى أن امتلأت قياسر (وكالات) مصر وأسواقها بالأمتعة المخرجة من قصر السلطان المبيعة على الناس، المنفق ثمنها فى أعطيات الأتراك، ثم كثر السلب والتشليح فى الطرقات نهاراً، والخطف والقتل ليلا، وخاف التجار من النهب، وعادوا إلى ما فى أيديهم مما اشتروا من الأشياء الثمينة المنسوجة بالذهب، وقصب الفضة والآلات المطعمة بالزمرد والفيروز، فأحرق جميعه فى النار، وسبك ذهبه، وأحرق حتى لم يبق من الصناع من يقدر على عمل مثله وصار كأمس الذاهب. وأعلمنى من له خبرة بما فى «خزانة البنود» أن مبلغ ما كان فيها من سائر الأمتعة والتحف والزخائر. لا تعرف

قيمته عظما، وأن المتفق عليه فى كل سنة من سبعين ألف دينار إلى ثمانين ألف دينار، وأن سائره احترق حتى لم يبق منه باقية.. إلخ.

الشدة المستنصرية

كانت الصراعات الطائفية أول مسمار دق فى نعش الدولة الفاطمية، أما المسمار الثانى فهو تلك المجاعة التى عمت البلاد طوال سبع سنين لم تشهد مصر لها مثيلا منذ السنوات السبع العجاف فى عصر يوسف الصديق، وقد فاض المؤرخون فى شرح النكبات التى عاناها المصريون طوال المجاعة وسموها «الشدة المستنصرية» نسبة إلى الخليفة المستنصر. فقد نقص النيل حتى بارت الأرض، وشح القوت، وانتشرت الأمراض والأوبئة، وبلغ سعر الرغيف خمسة عشر دينارا، وبحث الناس عن القطط والكلاب ليأكلوها، وبلغ سعر الكلب خمسة دنانير والقطة ثلاثة واشتدت المحنة حتى أكل الناس بعضهم بعضا كما يذكر المقريزى، وكان الرجل يخطف ابن جاره فيشويه ويأكله. وضبطوا رجلا من السود كان يقف على سطح بيته حتى رأى امرأة فى الطريق فقذفها بحبل فى نهايته كلابات من الحديد ثم جذبها حتى سقطت فى يده، فأخذها إلى داخل بيته وأخذ يقطع من فخذها هبرا من اللحم يسلقها ويأكلها، وبعد يومين سمع الجند استغاثتها فخلصوها من المجرم وضربوا عنقه، وبلغ من الأزمة أن الخليفة اضطر إلى أن يبيع كل ما فى قصره من ثياب وأثاث وسلاح، وصار يجلس فى قصره على حصير، وتعطلت دواوينه وذهب

وقاره، وكانت إحدى السيدات تتعطف عليه برغيفين كل يوم، ويقال إن أمه وبناته حاولن الفرار إلى بغداد بسبب الجوع والفاقة.

ويروى المقريزى فى (إغاثة الأمة بكشف الغمة) أن سيدة غنية من نساء القاهرة آلمها صياح أطفالها الصغار وهم يبكون من الجوع فلجأت إلى (شكمجية) حليها وأخذت تقلب ما فيها من جواهر ومصوغات، ثم تتحسر لأنها تمتلك ثروة طائلة ولا تستطيع شراء رغيف واحد، فاختارت عقدا ثمينا من اللؤلؤ تزيد قيمته على ألف دينار، وخرجت تطوف أسواق القاهرة والفسطاط فلا تجد من يشتريه. وأخيراً استطاعت أن تقنع أحد التجار بشرائه مقابل كيس من الدقيق، واستأجرت بعض الحمالين لنقل الكيس إلى بيتها، ولكنها لم تكد تخطو بضع خطوات حتى هاجمته جحافل الجياع، فاغتصبوا الدقيق، وعندئذ لم تجد مفرا من أن تزاحمهم حتى اختطفت لنفسها حفنة من الدقيق وانطلقت تجرى بها حتى وصلت إلى بيتها، وحزنت لما حدث من الجماهير الجائعة، فعكفت على عجن حفنة الدقيق، وصنعت منها قرصا صغيرة وخبزتها، ثم أخفتها فى طيات ثوبها، وانطلقت إلى الشارع صائحة: الجوع.. الجوع.. الخبز.. الخبز.. والتف حولها الرجال والنساء والأطفال، وسارت معهم إلى قصر الخليفة المستنصر، ووقفت على مصطبة ثم أخرجت قرصة من طيات ثوبها ولوحت بها وهى تصيح: أيها الناس.. فلتعلموا أن هذه القرصة، كلفتنى ألف دينار.. فادعوا معى لمولاى السلطان.. وسمع «المستنصر» الصياح فأطل من شرفته، وعلم بما حدث، فاشتد به الجزع لما أصاب الرعية، وأرسل فاستدعى والى القاهرة، وشدد عليه

بأن يتخذ التدابير الحاسمة كى تخرج الغلال إلى الأسواق، وإلا فصل رأسه عن جسده.

وكان الوالى ماكرا، وزاده الحرص على حياته مكرا ودهاء، فخرج فى الحال، واستدعى جماعة من المجرمين المحكوم عليهم بالسجن سنوات طوالا، وألبسهم ملابس التجار الأثرياء، وحجزهم فى غرفة من داره، ثم أرسل فاستدعى تجار الغلال بالقاهرة والفسطاط، فلما تكامل عددهم أمر حاجبه فأحضر واحداً من المجرمين، ولم يكد الرجل يدخل وهو يرفل فى ثيابه الأنيقة كأنه أغنى التجار وأوسعهم رزقا، حتى فاجأه الوالى بقوله: «ألم يكفك أيها التاجر أن عصيت أمر مولانا الخليفة حتى حبست الغلال ومنعتها عن الأسواق وتسببت فى هذه المجاعة التى كادت تودى بالشعب؟ وقبل أن يفيق الرجل من ذهوله، وقبل أن يفتح فمه بكلمة للدفاع عن نفسه كان السياف قد أطاح برأسه، وفعل نفس الحيلة مع مجرم آخر. . وهنا علت وجوه التجار صفرة الموت، فخروا راكعين متوسلين العفو عنهم على أن يخرجوا ما فى مخازنهم من قمح ودقيق إلى الأسواق، ويبيعوا رطل الخبز بدرهم واحد، ولكن الوالى لم يقبل، وطلب إليهم أن يكتفوا بدرهم واحد ثمنا لرطلين، فأعلنوا موافقتهم على طلبه، وفى ساعات قليلة كانت الأسواق قد امتلأت بالقمح والدقيق والخبز، ووقف الباعة أمام حوانيتهم ينادون على الخبز كل رطلين بدرهم، وانفرجت الأزمة إلى حين: (من كتاب: دراسات فى التاريخ الإسلامى للدكتور جمال الدين الشيال).

لم يبق إلا عظامهم:

ويروى السيوطى فى (حسن المحاضرة): وفى سنة ستين وأربعمائة كان ابتداء الغلاء العظيم بمصر، الذى لم يسمع بمثله فى الدهور من عهد يوسف الصديق عليه السلام، واشتد القحط والوباء سبع سنين متوالية بحيث أكلوا الجيف والميتات، وأفنيت الدواب، ولم يبق لخليفة مصر سوى ثلاثة خيول بعد العدد الكثير، ونزل الوزير يوما عن بغلته، فغفل الغلام عنها لضعفه من الجوع فأخذها ثلاثة نفر فذبحوها وأكلوها، فقبض عليهم ثم صلبوا، فاغتنم الجياع ستار الليل فهجموا على جثث المصلوبين وأكلوا لحومهم ولم يبق إلا عظامهم، وقبض على رجل كان يقتل النساء والصبيان ويبيع لحومهم ويدفن رءوسهم وأطرافهم، فقتل، واشتد الغلاء والوباء حتى أن أهل البيت كانوا يموتون فى ليلة واحدة، وكان يموت كل يوم على الأقل ألف نفس، ثم ارتفع العدد إلى عشرة آلاف، وفى يوم مات ثمانية عشر ألفا، وكان «المستنصر» يتحمل نفقات تكفين عشرين ألفا على حسابه، حتى فنى ثلث أهل مصر، وقيل إنه مات مليون وستمائة ألف نفس، ونزلت الجند لزراعة الأرض بعد أن هلك الفلاحون، وخلت القرى من سكانها، وخربت ضواحى الفسطاط ـ العسكر والقطائع ـ وتحولت إلى أطلال خربة.

انفراج المحنة:

فى عام ٤٦٥هـ بدأت المحنة تنفرج، وعاد النيل إلى معدله المعتاد وأخذت الحياة تتجدد فى شرايين البلاد. وكان على الخليفة المستنصر

أن يستفيد من دروس المحنة التى وضعت البلاد على حافة الهلاك بسبب صراعات الجند، وأن يعمل على استتباب الأمن والقضاء على رءوس الفتنة، ولكن كيف السبيل وقادة الترك والسودان والمغاربة يتحكمون فى شئون الدولة. عندئذ أشار عليه وزيره المقرب «أبو الفرج محمد بن جعفر بن المغربى» وكان قائما على ديوان الإنشاء بأن يستعين بحاكم عكا القوى بدر الجمالى ويستحضره إلى مصر ويعهد إليه بتدبير الأمور وإعادة الأمن إلى نصابه وأستجاب المستنصر لمشورة وزيره، وأوفده إلى عكا ليعرض على حاكمها المجىء إلى مصر ليقوم بالمهام الكبرى الملقاة على عاتقه، وبعد أن قلب بدر الجمالى الأمور من كافة وجوهها، وافق على العرض بشرطين:

الأول: أن يحضر إلى مصر ومعه رجاله وجنوده.

الثانى: أن تطلق يده فى القضاء على رءوس الجند الذين تسببوا فى إفساد البلاد والعباد.

ووافق الخليفة المستنصر على شروط بدر الجمالى، وفى يناير سنة ١٠٧٤ الموافق شهر جمادى الأولى من سنة ٤٦٦ هجرية، وصل بدر الجمالى على رأس قواته إلى دمياط، ومنها إلى قليوب، حيث أقام بها ليلتين دون أن يشعر أحد بقدومه، ودخل القاهرة سراً، وأصبح الناس ذات يوم ليجدوا شوارع القاهرة قد خلت من الفوضى، وعندما سألوا عن السبب علموا أن بدر الجمالى قد أدار مذبحة انتهت بالقضاء على رءوس الفتنة.

مذبحة الجمالية

كان بدر الجمالى، الذى ينتسب إليه حى الجمالية بالقاهرة ـ مملوكًا أرمنيا لوالى دمشق جمال الدين بن عمار، ومن هنا جاء نسبه إلى سيده، مثل غيره من المماليك الذين يباعون فى سوق الرقيق وهم فى سن الصبا، فتنقطع صلتهم بآبائهم، وترتبط بأسيادهم، وكان الصبى منذ نشأته ميالا إلى الجد والاهتمام بالأمور الخطيرة والارتفاع عن صغائرها، ويمتلك روحا تواقة إلى المجد والرفعة والترقى فى المناصب الكبيرة حتى أصبح من ذوى الشهامة وقوة العزم، وترقى فى سلك الإدارة حتى شغل منصب والى دمشق مرتين، إلى أن انتهى به المطاف واليا على عكا بفلسطين، وكان بالطبع يسمع بما يجرى فى مصر من فتن وفوضى بسبب نزاعات طوائف الجند المغاربة والأتراك والسود والمرتزقة، ويترقب ذلك اليوم الذى يستدعيه فيه الخليفة المستنصر إلى عاصمة الإمبراطورية الفاطمية ليضبط الأمور ويقضى على مسببات الفوضى، وصدق حدسه، وجاءه نداء المستنصر مستنجدا، وواعدا إيّاه بتملك البلاد والتصرف فيها كما يتصرف المالك فى ملكه، ولا يكون لأحد ـ حتى الخليفة نفسه ـ كلمة فى شئونه. . لبى بدر الجمالى نداء سيده. . واصطحب معه جيشا من الأرمن المسيحيين ومعهم بطريقهم ليشرف على أمورهم الدينية، وانطلق بأسطوله من عكا إلى

دمياط وسط أجواء بحرية سيئة ورفض الانتظار حتى يتحسن الجو، ويصف المقريزى رحلة بدر الجمالى البحرية بأسلوب درامى للتدليل على قوة عزيمته، وحسن طالعه حتى أفلت من هلاك البحر، فيقول: وركب البحر من عكا وسار بمائة مركب بعد أن قيل له أن العادة لم تجر بركوب البحر فى الشتاء لهيجانه، ولخوف التلف، فأبى عليهم، وأقلع، فتمادى الصحو والسكون مع الريح الطيبة مدة أربعين يوما حتى كثر التعجب من ذلك، وعد من سعادته فوصل إلى «تنيس» و«دمياط» واقترض المال من تجارها ومياسيرها، وقام بأمر ضيافته وما يحتاج إليه من الغلال سليمان اللواتى - زعيم قبيلة «لواته» وكبير أهل بحيرة المنزلة - وسار إلى قليوب فنزل بها وأرسل إلى المستنصر يقول: لا أدخل مصر (القاهرة) حتى تقبض على «بلدكوش» زعيم الأمراء الأتراك، فقبض عليه المستنصر واعتقله بخزانة البنود بعد أن علقوه من إحدى رجليه فى ركاب فرسه.

دخل بدر الجمالى القاهرة سراً، واتخذ لنفسه مقرا فى حارة برجوان بالقرب من مسجد الحاكم بأمر الله. ويبدأ على الفور فى تدبير مذبحة يتخلص خلالها من زعماء الشغب والفوضى. وكان عليه أن يفكر فى حيلة يستدرج بها هؤلاء المفسدين إلى ساحة المذبحة فى وقت واحد حتى لا يفلت منهم أحد، وهو نفس ما سوف يفعله محمد على - بعد ٧٠٠ سنة - مع المماليك فى مذبحة القلعة.

العسل المسموم:

بعث بدر الجمالى مندوبين عنه إلى زعماء الجند مشحونين بالود

والتعاطف وإظهار رغبته في التعاون معهم لإنقاذ البلاد مما هي فيه، وبلع الزعماء الطعم، وقابلوا الود بالود، وشرعوا في دعوته إلى بيوتهم ليجالسهم ويناقشهم في أفضل السبل لإقرار النظام، وهو في حديثه إليهم يصانعهم ويبدى لهم أنه ما جاء إلى مصر إلا شوقًا إليهم، ورغبة منه في تحسن الأحوال، ثم هو يخادعهم ويتظاهر بالسخط على الخليفة المستنصر، ولا يذكره إلا بالسوء، حتى ينزع من نفوسهم أية ريبة في تواطئه مع الخليفة، وهم يصدقون كلامه، وينخدعون بمعسول ألفاظه، حتى دخل في روعهم أنه يشاركهم السخط والتمرد على نفوذ الخليفة. وفي خلال هذه المرحلة، كان جنود الأرمن الذين جاءوا مع قائدهم بدر الجمالي، يتسللون من قليوب إلى القاهرة في شكل جماعات صغيرة حتى لا يشعر بهم قادة الفرق المتصارعة وتنكشف المهمة التي جاءوا من أجلها، فلما تكامل عددهم، ومضت مرحلة التودد والخداع بدأ «بدر» في تنفيذ الخطة التي دبرها بإحكام.

أرسل الجمالي إلى قادة الجند يشكرهم على السهرات الجميلة التي قضاها في ضيافتهم، والمآدب الفاخرة التي أعدوها له، وأن الوقت قد حان ليرد لهم هذا الجميل، ويدعوهم إلى قضاء ليلة في ضيافته تدعيما لأواصر الود والمحبة، وكانت خطة المذبحة تقضي بأن يتولى كل واحد من أعوانه، أمر واحد من أمراء الترك والمغاربة والسودان، ويقتله، وله بعد ذلك أن يستولي على كل ما كان يملك القتيل من ضياع وأموال وبيوت وجواهر. وفي الليلة الموعودة أقبل الأمراء وهم يرفلون في ثيابهم المزركشة، واستقبلهم صاحب الدعوة بكل مظاهر البشر والترحاب، وتحلق الجميع حول مائدة فخيمة عامرة بكل أطايب

الطعام. وحرص بدر على أن تحفل المائدة بأعتق أنواع الخمور حتى تذهب الخمر برءوسهم عندما تحين لحظة الهلاك. . وقضى الأمراء معظم الليل وهم فى غاية المرح والسرور. ولا يتصورون أنهم يقضون آخر أيامهم فى هذا البلد الذى أنعم عليهم بالخير والرفاهية، فقابلوا الإحسان بالإساءة ولم يتورعوا عن نهب أمواله وخيراته.

ويدأ تنفيذ المذبحة فى سهولة ويسر. فإذا شعر أحدهم برغبته فى قضاء حاجته، استأذن للذهاب إلى الخلاء، وعندئذ يجد فى انتظاره واحدا من أعوان بدر الجمالى، فيعاجله بضربة سيف واحدة تفصل رأسه عن جسده، وهو فى حالة من السكر تجعله عاجزا عن الدفاع عن نفسه، ولم يفطن بقية الأمراء إلى أن الذى يذهب منهم إلى الخلاء لا يعود مرة ثانية، فالخمر قد لعبت برءوسهم وسلبت ما فيها من إدراك، حتى إذا أشرقت شمس اليوم التالى كانت جثث الأمراء المشاغبين قد تكدست فى باحة البيت، أما الرءوس فقد جمعت فى جوال، وذهب بها بدر الجمالى إلى الخليفة المستنصر ليفضى إليه بالنبأ العظيم، وهو تطهير القاهرة من زعماء الفوضى والشغب، وعلى الفور نهض المستنصر ليوقع سجلا بتعيين بدر الجمالى وزيراً للدولة الفاطمية، وخلع عليه بالطيلسان المقرر، وقلده وزارة السيف والقلم، وصار لقبه: السيد الأجل، أمير الجيوش، سيف الإسلام، ناصر الإمام، كافل قضاة المسلمين، وهادى دعاة أمير المؤمنين أبو النجم «بدر» المستنصرى. وتحولت نسبته من «الجمالى» إلى «المستنصرى» نسبة إلى سيده الجديد. ومع ذلك بقيت شهرته مرتبطة باسم «الجمالى» ربما لأنها أسهل فى النطق والتداول من النسبة الجديدة،

وصار اسمه قائمًا على حى «الجمالية» الذى شهد هذه الوقائع الجسام.

ويعصر بدر الجمالى يبدأ عصر الوزراء العظام الذى يمثل المرحلة الثانية والأخيرة فى تاريخ الدولة الفاطمية، وهو العصر الذى انتقلت فيه السلطة الفعلية إلى الوزراء، وتحول الخلفاء الفاطميون إلى ألعوبة فى أيديهم، ولسوف تتزايد سلطات هؤلاء الوزراء حتى يتمكن آخرهم «صلاح الدين الأيوبى» من القضاء على الدولة الفاطمية فى مصر، ويقيم الدولة الأيوبية التى اقتلعت مصر من براثن العقيدة الإسماعيلية، وعادت بها إلى النهج السنى.

تعمير البلاد وعودة الرخاء:

ونعود إلى أمير الجيوش بدر الجمالى لنرى كيف صارت أمور البلاد على يديه منذ تلك الليلة التى استأصل فيها رءوس الفوضى. يقول المقريزى عن تلك الليلة وما نجم عنها: فما طلع ضوء النهار حتى استولى أصحاب (بدر) على جميع دور الأمراء، وصارت رءوسهم بين يديه، فقويت شوكته، وعظم أمره، وصارت القضاة والدعاة وسائر المستخدمين من تحت يده..

ويقول ابن تغرى بردى: وقد تحكم (بدر) فى مصر تحكم الملوك، ولم يبق للمستنصر معه أمر، واستبد بالأمور فضبطها أحسن ضبط، وكان شديد الهيبة، وافر الحرمة، مخوف السطوة، قتل من مصر خلائق لا يحصيها إلا خالقها، إلا أنه عمّر البلاد وأصلحها بعد فسادها وخرابها بإتلاف المفسدين من أهلها، وكانت له محاسن منها

أنه أباح الأرض للمـزارعين ثلاث سنين، حـتى ترفـهت أحـوال الفلاحين واستغنوا فى أيامه، ومنها حضور التجار إلى مصر لكثرة عدله بعد انتزاحهم منها فى أيام الشدة، ومنها كثرة كرمه».

وإشارة ابن تغرى بردى إلى إباحة الأرض للمزارعين ثلاث سنين تعود إلى سنوات الشدة والمجاعة التى دامت سبع سنين قبل مقدمه إلى مصر، حتى بارت الأرض بعد أن هرب منها الفلاحون، فعمل الجمالى على إغراء المزارعين للعودة إلى حقولهم بأن قرر إعفاءهم من دفع الضرائب لمدة ثلاث سنوات. ولاشك أن هذا الإجراء شجع الفلاحين على ممارسة الزراعة، أضف إلى ذلك إنه اكتفى بجباية نصف الخراج فى السنة الرابعة، وعمر الريف، وأصلح الترع والجسور، وشعر الفلاحون بالأمن والرخاء، وأعاد تقسيم البلاد إداريا إلى (٢١) عملا وقسم الأعمال إلى نواح، والنواحى إلى قرى وكفور، كما شجع أصحاب رءوس الأموال على الحضور إلى مصر لاستثمار أموالهم بعد أن نزحوا عنها أيام المحنة، وأخذت القوافل التجارية تتوافد على مصر، فانتعشت التجارة وتراجعت الأسعار وبيع «تليس» القمح بربع دينار، وتحسنت ميزانية البلاد حتى أصبحت فى عهده ثلاثة ملايين ومائة ألف دينار فى سنة ٤٨٣هـ.

الإنقلاب الشيعى:

بعد أن فرغ «بدر» من مذبحة الجمالية، بعث بجنوده لمطاردة عناصر الفتنة فى الأقاليم، وذهب جنوده إلى الصعيد للقضاء على ثورة العربان والجند السودان الذين تحصنوا فيها، وهزموا «كنز الدولة»

الذى كان حاكما على أقصى الصعيد، ثم توجه بنفسه إلى الوجه البحرى فأخضع قبيلة «الواتة» الذين سبق لهم أن أمدوه بالمال حين نزوله دمياط مبحرا من عكا. . وأعاد نفوذ الخلافة إلى ما كان عليه سواء فى مركز الخلافة (مصر) أو فى الشام وقد عمل على استعادتها للنفوذ الفاطمى بعد أن استولى عليها الأتراك السلاجقة، واستولى على مدينة «صور» و«بعلبك» و«عسقلان»، وبذلك أنقذ الجمالى الدولة الفاطمية من الفناء المبكر، ومد فى عمرها قرنا كاملا من الزمان حتى لقيت مصرعها على يد النجم الأيوبى الساطع يوسف صلاح الدين.

ولعل من أهم مآثر بدر الجمالى - من حيث العمران - تلك الأبواب الثلاثة التى أقامها على السور الجديد الذى بناه حول القاهرة، وهو السور الثانى، بعد السور الأول الذى أقامه القائد جوهر الصقلى بعد أن شرع فى بناء القاهرة عام ٣٥٨هـ. وصارت المنطقة التى تقع بين سور جوهر وسور الجمالى تعرف حتى الآن باسم (بين الصورين) وتتميز الأبواب الثلاثة التى بناها بدر الجمالى على مداخل القاهرة بأنها مبنية من الحجر، الأمر الذى يشهد للرجل بالقوة والجبروت، والأبواب الثلاثة هى: «باب زويلة» الذى يقع فى نهاية شارع الغورية. وهو الباب الذى شهد مصرع آخر حكام المماليك (طومان باى) الذى شنقه السلطان السفاح سليم الأول بعد احتلاله مصر عام ١٥١٧م. والباب الثانى: هو باب النصر، والباب الثالث باب الفتوح وهما متجاوران ويلاصقان مسجد الحاكم بأمر الله ويطلان على حى الحسينية.

ست الملك

عندما جاء أمير الجيوش «بدر الجمالى» حاكم عكا القوى إلى مصر، بناء على نداء عاجل من الخليفة «المستنصر» للقضاء على الفوضى، كان «بدر» قد وضع نصب عينيه أن يدخل مصر ولا يغادرها إلى الأبد، بل يحكمها حكما وراثيًا يمتد إلى أولاده وأحفاده من بعده، ولم يكن الجمالى أول المغامرين الذين وفدوا على مصر فى مهمة محدودة وإقامة مؤقتة فجعلوا منها إقامة أبدية، فأحمد بن طولون فعل ذلك، والإخشيد فعل ذلك، وصلاح الدين الأيوبى جعل حكم مصر وراثيًا فى أسرته لمدة ثمانين عامًا. وسار على النمط بيبرس وقلاوون فى العصر المملوكى الأول، وكان آخر أولئك الوافدين الذين «تمصروا» واستقروا.. محمد على باشا الذى هبط مصر جنديا فى جيش العثمانيين بعد رحيل الفرنسيين، فلم يغادرها.. ظلت أسرته تحكم مصر مائة وخمسين عاما حتى أطاحت بها ثورة يوليو ١٩٥٢.

كان بدر الجمالى يعرف تحقيق هذا الهدف البعيد، فمصر فى ذلك الوقت كان يحكمها الفاطميون وفق تعاليم المذهب الإسماعيلى الذى يحصر «الإمامة» فى أسرتهم، ويخول للإمام سلطات زمنية وروحية

مطلقة، وهو لا يتولى الإمامة بالإختيار الحر من الناس، وإنما بالنص عليه من الإمام السابق. وتنتقل الإمامة من الأب إلى الابن فى سلسلة فولاذية لا تقبل التعديل أو التغيير حتى لو كان الوريث طفلا يحبو، كما حدث للمستنصر الذى صار إمامًا يدين الناس له بالطاعة والعبودية ولم يبلغ السابعة من عمره. وكان على «بدر» أن يخترق هذه السلسلة ويضع فيها حلقة تتيح له نقل الإمامة إلى بيته.

الجمالى كان يعرف أن الوريث الشرعى للخليفة المستنصر هو ابنه «نزار»، وكان فى سن الثلاثين عندما جاء الجمالى إلى مصر، ولكن ما الذى يمنع ظهور ابن آخر للخليفة الإمام ينافس أخاه ويستلب منه الإمامة وما الذى يمنع من أن يكون الوريث الجديد من بيت الجمالى كى تئول إليه الإمامة، فيحافظ على المظهر الشكلى لنظام الوراثة، أما السلطة الفعلية فتنتقل إلى بيت «الجمالية» (؟!) وبدأ «بدر» يرسم خطته فى صبر وأناة وحنكة لا يقدر عليها إلا أولو العزم من دهاقنة السياسة والمؤامرات.

كان للجمالى ابنة رائعة الحسن والجمال اسمها «ست الملك» انتقلت مع أبيها فى رحلته الأسطورية إلى مصر، وتحدث الناس بجمالها حتى وصلت أخبارها إلى مسامع الخليفة، فأبدى رغبته فى رؤيتها، وتلقف الجمالى الطلب وهو يرقص طربا، وعرف أن الخليفة قد ابتلع الطعم، ولم يبق إلا اصطياده فى الشبكة التى نسج خيوطها بحكمة واقتدار، فأعد فى بيته وليمة فاخرة تليق بمقام أمير المؤمنين دعا إليها النخبة من أهل بيته وبعض أعوانه الذين ساعدوه فى الترويج لجمال ست الملك عند سيدهم، ودخلت الفتاة إلى الحضرة المستنصرية

وهى ترفل فى ثيابها الفخيمة وتضع على وجهها قناعا من الحرير الشفاف. وبعد أن أدت فروض التحية وهى راكعة على الأرض، رفعت وجهها ونزعت الغلالة الرقيقة عن وجهها الذى تبدى فى عين الخليفة كالبدر فى ليلة التمام. وانبهر الرجل بجمالها، وأذن لها بالجلوس إلى جواره، وأخذ يجاذبها الحديث فإذا بأدبها لا يقل عن جمالها، فلم يغادر البيت حتى كان قد وضع يده فى يد أبيها إعلانا عن زواجها منه.

ست الملك تنجب:

نجحت الخطوة الأولى فى المشروع الكبير الذى رسمه الجمالى، وانتقلت ابنته ست الملك إلى القصر الكبير وصارت زوجة لأمير المؤمنين، وبقى على الأقدار أن تسانده فى خطته وتهب ابنته ولداً تنتقل الخلافة على يديه إلى بيت جده، وكانت الأقدار سخية على بدر الجمالى كما كانت معه طوال عمره، منذ كان مملوكًا أرمنيًا فى بلاد والى دمشق. وحملت «ست الملك» وأنجبت ولداً أسماه أبوه «أحمد» وبذلك تهيأت كل الظروف أمام الجمالى ليسير نحو هدفه الأخير وينقل الإمامة إلى حفيده.

ولم تكن تحركات الجمالى لتخفى عن عيون «نزار» الابن الأكبر للمستنصر ووريثه الشرعى، وكان نزار فى الثلاثين من عمره عندما جاء الجمالى إلى مصر، ولكن ماذا يستطيع نزار أن يفعل إزاء هذا الوزير الجبار الذى جمع فى يده كل خيوط السلطة، وصار الحاكم الفرد الذى تضاءلت إلى جانبه سلطة الخليفة الإمام؟ كان نزار يعلق

الأمل على زعزعة مركز الوزير مثلما حدث لكل الوزراء السابقين ، ولكن سلطات الجمالى أخذت تتسع وتستفحل حتى أن الخليفة أضاف إليه مسئولية الإشراف على شئون «الدعوة» الإسماعيلية ، وهو أخطر منصب دينى فى النظام الفاطمى ، ولا يشغله إلا فقيه كبير موضع ثقة الإمام ، فهو الذى يشرف على الدعاة الذين ينبثون فى أنحاء العالم الإسلامى لترويج المذهب الإسماعيلى ، ويخضع لإشرافه «بيت الحكمة» وهو المؤسسة العلمية التى أقامها الحاكم بأمر الله ليتلقى فيها الدعاة أصول المذهب على أيدى الفقهاء والفلاسفة القادمين من إيران ، فكان أشبه بالأكاديمية التى يتخرج فيها الدعاة ، ولعل هذه المسئوليات الجسام تعطيك فكرة عن الثقة الكبيرة التى كان يتمتع بها بدر الجمالى عند سيده المستنصر ، فكيف لهذا الابن الحائر (نزار) أن يقف فى وجه الجمالى ويعمل على إحباط خطته فى إقصائه عن الخلافة؟ فلم يجد أمامه إلا أن يسعى إلى تحريك الأجنحة المضادة لنفوذ الجمالى ، والتى أثارها هيمنته على شئون المذهب الإسماعيلى رغم أنه أرمنى حديث الإسلام ، ولا تربطه بالمذهب رابطة قديمة ، وبدأ نزار يبث رسله إلى الإسماعيليين فى اليمن والهند وإيران ، وتأليبهم ضد الجمالى ، وفى داخل مصر اتصل نزار بوالى الإسكندرية «أفتكين» التركى حتى يكون جاهزاً للوقوف إلى جانبه إذا جدت فى الأمور أمور .

بداية الحسن الصباح:

من جهة أخرى كان الجمالى يراقب تحركات «نزار» وأعوانه ،

ويطلق الجواسيس لمراقبة أتباع الإسماعيلية الذين يتلقون العلم فى مصر، ومنهم شاب فارسى شديد الطموح كثير الشغب اسمه «الحسن الصباح» جاء إلى مصر «حاجا» إلى الإمام المستنصر ومقابلته. وهذه المقابلة أحد أركان العقيدة الإسماعيلية، بل هى التأويل الباطنى للحج عندهم، أما الحج الظاهر فهو زيارة بيت الله الحرام، ويقال إنه قابل المستنصر مرة واحدة وسأله: من إمامى من بعدك؟ فقال: نزار، ولذا لم يكن الحسن الصباح راضيا عن تصرفات الوزير المستبد بدر الجمالى، والخيوط التى ينسجها من أجل إقصاء نزار وتولية المستعلى، وأخذ يجهر بهذه المعارضة فى محيط الإسماعيليين بالقاهرة، فلما وصلت أنباؤه إلى مسامع الجمالى قبض عليه وسجنه، ثم نفاه إلى المغرب، ولكن السفينة التى حملته من الإسكندرية، طوحت بها الرياح إلى الشام، ومنها ذهب إلى إيران حيث أقام «دولة الحشاشين» لمناوءة نظام الحكم الذى أقامه الجمالى فى مصر.

قتل ابنه «الأوحد»:

كان الجمالى على استعداد لتحطيم أى رأس تقف فى طريقه حتى لو كانت رأس ابنه «الأوحد» الذى جعله واليًا على الإسكندرية، ولكنه شق عصا الطاعة على أبيه، فما كان من «بدر» إلا أن خف إلى هناك على رأس قواته الخاصة، وقبض على ابنه «الأوحد» - وهذا اسمه وليس صفته - وقيل إنه قتله بيديه، وقيل إنه دفنه حيا، قيل بل أغرقه فى البحر، وقيل إنه حبسه حتى مات جوعا، وتعددت التفاسير، ولكن النهاية واحدة، وبعد موت الأوحد اتخذ بدر من ابنه الثانى «الأفضل» معاونا

وسندا، وأشـركـه فى تدبيـر الأمـور، وأفـضى إليـه بكل سلطاته، واستـصـدر من الخليـفـة سجـلا رسميا يعتـرف بالأفـضل وليـا لعهـد السلطنة، وأمر المستنصر بأن يدعى له على المنابر بعد الدعاء للخليـفة ولأمير الجيوش «بدر»، وكتب إلى أتباع الإسماعيلية فى اليمن يخبرهم بأنه «أوكل إلى الأفضل بن بدر الجمالى سياسة الملك، ومايختص بظاهر السلطان وأمور الجند، على أن يتـفـرغ والده بدر الجـمـالى على درس علوم الأئمة والإشراف على الدعوة».

وبذلك صـار «الأفـضل» المرشح الأول لوراثة أبيـه فى سلطانه العـريض، وفى شـهـر جـمادى الأولى من عـام ٤٨٧ هجـرية انتـقل الجـمالى إلى الرفيق الأعلى بعد حياة حافلة بالعمل الدءوب وقضى العشرين عامًا الأخيرة من حياته فى إدارة شئون مصر الفاطمية، مفتتحا العصر الذى يعرف بعصر الوزراء العظام، أو وزراء السيف الذين جـمـعوا فى أيديهم كل السلطات، وتحول الخلفاء معهم إلى كائنات هزيلة. وعلى الفور انتقلت سلطات الجمالى إلى ولى عهده الأفـضل وخلع عليـه المستنصـر نفس ألقـاب أبيـه: «السيـد الأجل الأفـضل أمير الجيـوش سيف الإسـلام، ناصر الإمـام، كافل قـضـاة المسلمين، وهادى دعاة المؤمنين».

ولم يلبث المستنصر أن لحق بالرفيق الأعلى فى شهر ذى الحجة من نفس العام عن عمر يناهز سبعة وستين عاما، وبعد حكم دام أكثر من ستين سنة. وبموته خلا منصب الإمامة «الخلافة» فتحرك الأفضل على الفور، وأعلن أن الخليفة الشرعى هو ابن أخته (أحمد) الذى صار لقبه منذئذ (المستعلى بالله) وكان قد بلغ العشرين من عمره، وأقيمت مراسم التنصيب فى احتفالات رسمية وشعبية، ولم يسكت «نزار» على هذا

الانقلاب الذى أطاح به، ففر إلى الإسكندرية متحصنا بها، ولائذا بواليها «أفتكين» التركى. وأعلن نزار نفسه إماما شرعيا للدولة الفاطمية، فلحق به الأفضل على رأس جيش لجب، ودارت بين الفريقين معركة ضارية انتهت بهزيمة نزار وأعوانه، ووقعوا فى أسر الأفضل، فساقهم إلى القاهرة حيث لقوا حتفهم بعد أن بنى عليهم حائطا.

ولكن الأمور لم تهدأ أمام الأفضل وابن أخته المستعلى، وأعلنت بعض الأقطار الإسماعيلية رفضها لهذا الانقلاب الذى يتعارض مع نظام الوراثة الفاطمى، وبينما أعلن الإسماعيلية فى مصر والشام واليمن والهند اعترافهم بإمامة المستعلى، رفض إسماعيلية إيران وتمسكوا بإمامة نزار. وبذلك حدث أكبر انشقاق فى تاريخ الدعوة الفاطمية وهو الانشقاق الذى لا تزال آثاره باقية حتى اليوم، فالنزارية لا تزال قائمة فى الجماعة التى يتزعمها (أغا خان) ولها أتباع كثيرون فى إيران وشرق أفريقيا، أما المستعلية فتمثلها طائفة البهرة الذين شدهم الحنين إلى مصر بعد مرور ألف سنة، وقاموا بتجديد مسجد الحاكم بأمر الله ومسجد «الآمر» الذى يقع فى شارع المعز لدين الله، وهو ابن المستعلى، أما الخطر الكبير فقد جاء من فرقة الحشاشين الذين تزعمهم الحسن الصباح، وأطلقهم إلى مصر والعراق والشام لاغتيال الحكام والقادة والأمراء الذين يرفضون الانصياع لدعوته.. وهى الفرقة التى أشاعت الفزع والرعب فى كل أنحاء العالم الإسلامى.

فرقة الحشاشين

لا يذكر اسم «الحسن الصباح» إلا مقرونا بالإرهاب وسفكه الدماء. وبقيت صفحته فى سجل التاريخ ملطخة بدماء الضحايا الذين لقوا حتفهم بطعنات الخناجر وهم فى عقر دارهم، واستطاع هذا السفاح أن يجند قطيعا من الشباب دانوا له بالطاعة العمياء، ينفذون أوامره دون تفكير أو روية لأنه كان يقوم بتخديرهم بالحشيش قبل أن ينطلقوا إلى عمليات الاغتيال، ولذا ارتبطت كلمة «حشاش» فى اللغات الأوروبية بكلمة «Assassant» أى القاتل سفاك الدماء. وقد بدأ الصباح يفكر فى تكوين هذه الفرقة الدموية بعد أن غادر مصر فراراً من نقمة الوزير بدر الجمالى، وعاد إلى مسقط رأسه فى إيران بعد أن اجتاز سوريا والعراق وخوزستان، وكان طوال رحلته يدعو الناس إلى الالتفاف حوله لتخليص الإمام «المستنصر» من سطوة بدر الجمالى واستبداده بشئون الدعوة الإسماعيلية وسعيه إلى تنصيب «حفيده» «المستعلى» بدلا من أخيه «نزار». فآمن بدعوته خلق كثير، يمنيهم بإقامة العدل ومقاومة الظلم الذى حاق بهم من سلاطين الأتراك السلاجقة.

فى أقاصى الأصقاع الإيرانية عند بحر قزوين، استقر الحسن الصباح، ووجد فى المناطق النائية مكانا مناسبا لإقامة دولة

للإسماعيلية ينتقل إليها الإمام «المستنصر» ويتخذها مركزا له وللدعوة الإسماعيلية بدلا من مصر، وشرع فى وضع الخطوات التنفيذية لمشروعه الخطير، فأطلق الدعاة لجذب الجماهير المتعطشة إلى العدل، والتى ضاقت بها الحياة من طغيان السلاجقة، ونجح هؤلاء الدعاة فى التسلل إلى داخل القلاع والحصون، وتمكنوا من استمالة عدد كبير من الجند فاعتنقوا الدعوة الإسماعيلية. وكان أقوى هذه القلاع قلعة «آلموت» ومعناها: عش النسر، ولها من اسمها نصيب كبير حيث تتربع فوق قمة جبال عالية يصعب الوصول إليها إلا بشق الأنفس، ووجد الصباح أنها أنسب القلاع لتكون قاعدة لدولته المنشودة، فلما نجح دعاته فى تحويل جنود القلعة إلى المذهب الإسماعيلى، أوعز إليهم أن يوجهوا إليه الدعوة لزيارتهم، وذهب الحسن إلى القلعة متنكرا منتحلا اسمًا غير اسمه، ولم يعرفه أحد من أتباعه سوى الدعاة فقط، ومكث فى القلعة بضعة أيام يتنقل بين حصونها ودروبها ومسالكها ويختلط بسكانها حتى عرف كل شىء عنها، وعندئذ كشف عن شخصيته، وطلب من حاكم القلعة أن يسلمها له، فانصاع للأمر عندما علم أن الجنود الذين كان يعتمد عليهم، أصبحوا طوع إرادة الحسن الصباح، وكانت تلك بداية الدولة الإسماعيلية فى إيران.

ولم يلبث الصباح أن عمل على توسيع مملكته فاستولى على القلاع المجاورة، وأصبح الجو مهيأ لدعوة الإمام المستنصر إلى دولته، ولكن جاءته الأخبار بوفاة المستنصر وتولية ابنه المستعلى، فثار الصباح وخطب باسم «نزار» وأرسل بعض أعوانه إلى مصر لإحضار نزار،

فوجدوا أن الوزير «الأفضل» قد قتله، ولكنهم استطاعوا أن يصحبوا معهم ابنا لنزار إلى آلموت، فأخفاه الحسن حتى تأتى الفرصة المناسبة لإظهاره، وبقتل نزار أصبح الحسن الصباح صاحب الأمر فى الدعوة الإسماعيلية الجديدة، وهى الدعوة «النزارية» وصار هو العقل المدبر واليد الفاعلة لجميع الحوادث التى كانت تجرى فى العالم الإسلامى فى ذلك العصر.

جنة الصباح الأسطورية:

وشخصية الحسن الصباح من الشخصيات التى نسجت حولها الأساطير، واختلفت بشأنها أقوال المؤرخين، فقيل إنه أمر بأن تزرع السفوح الجبلية التى تعلوها قلعة آلموت، فكان منظر الجبل بعد إن كسته الخضرة وأينعت فيه الزهور سببا فى تلك القصة التى رواها الرحالة البندقى «ماركو بولو» فى القرن الثالث عشر الميلادى، فقد ذهب إلى أن الحسن الصباح أنشأ فى واد يقع بين جبلين حديقة فيحاء فسيحة غرس فيها جميع أنواع الزهور والرياحين وأشجار الفاكهة من كل صنف، وجعل فيها مقصورات ذات قباب بديعة الشكل، وزخرفها بنقوش ذهبية، وأجرى فى الحديقة أنهاراً من خمر، وأخرى من عسل، وثالثة من لبن، وأطلق فيها الحور العين من الفتيات الإيرانيات، والغلمان، والجميع يلهون بالموسيقى والغناء والرقص، ثم يسمح لأتباعه من الفدائيين بالتجول فى هذه الحديقة وإقناعهم بأنها الجنة التى وعد الله بها المتقين، وأن باستطاعة زعيمهم أن يُدخل جنته هذه من يشاء، ويُحرِم منها من يشاء، ولم يكن يسمح لأحد بَدخولها

إلا طبقة الفدائيين حتى يستلب عقولهم، ويجعلهم أداة طيعة تنفذ ما يصدر إليهم من تعليمات حتى لو كان فيها الموت لهم.

هذه القصة عن جنة الحسن الصباح كانت مثارا لأحاديث كثيرة ألهمت كتاب القصص، ولكن الدكتور محمد كامل حسين، وهو واحد من قلائل العلماء المصريين المتخصصين فى الفكر الإسماعيلى، يرفض هذه القصة الخرافية، ويرى أن السبب فى ترويجها هو نظام (الفدائيين) الذى أوجده الحسن الصباح لأول مرة فى التاريخ. ويرى الدكتور كامل حسين أن الحسن الصباح اقتبس هذا النظام من مصر عندما جاء إليها لدراسة الدعوة الإسماعيلية، فقد شاهد فى القصر الفاطمى الصغير عدة حجرات كان يقيم فيها شبان أحداث السن هم أبناء الأمراء وكبار رجال الدولة الفاطمية، جمعهم الخليفة المستنصر فى قصره ليربيهم تربية خاصة حتى يصطنعهم فى حكم دولته بعد أن يبلغوا سن الرجال، وكان هؤلاء الشبان يتعلمون فنون السياسة والدعاية والفروسية فى القصر الفاطمى على أيدى أخصائيين مهرة فى هذه الفنون وتحت إشراف الإمام نفسه، وقد أعجب الحسن الصباح بهذا النظام فى تربية جيل من الناشئة، وعرف بذكائه ودهائه كيف يقتبس نفس نظامهم فى تدريب الشباب على أعمال تحقق أهدافه، ويستعين بهم فى القضاء على أعدائه، فلما تم له امتلاك قلعة آلموت، جمع إليه طائفة من الأطفال أبناء الدعاة والمستجيبين المعروفين بغيرتهم للإسماعيلية، واستعدادهم للتضحية فى سبيل مذهبهم، وأخذ فى تدريب هؤلاء الأطفال على الطاعة العمياء، والإيمان بكل ما يقوله لهم، ثم بث فيهم حب التضحية بالروح فى سبيل العقيدة

والإمام، ولما اشتد ساعدهم أخذ يدربهم على استعمال الأسلحة المعروفة فى تلك الأيام ولا سيما الخناجر، أضف إلى ذلك أنه كان يعلمهم كيف يخفون أمر أنفسهم وأمر من معهم بحيث لا يبوح أحدهم بسره أو سر الجماعة التى ينتمى إليها، فإذا وقع فى أيدى الأعداء لا يبوح بكلمة واحدة، بل يقتل نفسه ويموت معه سره، وكان الصباح صارما فى تنشئة هؤلاء الغلمان، قاسيًا عليهم أشد القسوة حتى استطاع أن ينجح فى إعداد طائفة من الإرهابيين أفزعوا العالم الإسلامى كله.

إدمان الحشيش:

وقد أطلق المؤرخون على هذه الفرقة عدة أسماء منها «الحشاشين»، وقالوا إن السبب فى هذا الاسم أن الحسن الصباح كان يخدر الفدائيين بمادة «الحشيش» وأنه عودهم على تعاطى هذه المادة حتى أدمنوها وصاروا لا يستطيعون العيش بدونها، فكان يطلب منهم القيام بأعمال الاغتيال نظير حصولهم على الحشيش واستمتاعهم بالدخول فى جنته، ولكن الدكتور محمد كامل حسين يرفض هذه الدعاوى ويرى أنها من صنع أعداء الإسماعيلية، وحجته فى ذلك أن الحشيش يزرع الجبن فى نفس متعاطيه فلا يستطيع القيام بالأعمال الخطيرة التى كان يقوم بها الفدائى، مثل قتل الأعداء أو قتل نفسه إذا فشل فى مهمته، وأن الحشيشة تشل التفكير وتخدر العقل وتجعل المدمن يهذى ويبوح بأسرار يجب أن يكتمها، بينما الإرهابى الإسماعيلى كان يمتاز بالفطنة والكياسة والدقة التامة فى كل تصرفاته

وتقدير موقفه تقديرا يحقق له النجاح مع شدة الحرص على الكتمان، وهذا كله لا يتفق مع إدمان الحشيش.

اغتيال نظام الملك:

وإذا كان الكتاب والمؤرخون المحدثون لم يصدقوا قصة الحشيش كما لم يصدقوا قصة الجنة، إلا أنهم كتبوا الفصول الطويلة عن أعمال الاغتيال التى قام بها الفدائيون أتباع الصباح ضد خصومهم فى مصر والعراق، فكانوا يغتالون كل من تحدثه نفسه بعدائهم، ولا سيما الملوك والوزراء والأمراء، وكان أشهر من اغتالوه الوزير السلجوقى الكبير «نظام الملك» الذى جمعته فصول الدراسة بينه وبين الحسن بن الصباح، وكان ثالثهما الشاعر العالم عمر الخيام، وقيل إن الثلاثة اتفقوا وهم فى صدر الشباب على أن يساعد كل منهم صاحبيه إذا شغل منصبا مرموقًا. فلما تولى نظام الملك الوزارة للسلطان السلجوقى «ملكشاه». استدعى صديقه الحسن الصباح وعهد إليه بوظيفة مرموقة فى ديوان الإنشاء، ولكن الصباح دأب على إثارة الشغب وتأليب زملائه ضد الدولة، فأبعده نظام الملك وأضمر الصباح الشر لصاحبه فكان على رأس قائمة الاغتيالات. وتوالت ضربات الفدائيين للأمراء السلاجقة ورجال دولتهم حتى شاع الذعر أرجاء العراق، وكثر الحديث عن جرائمهم وتحول الفدائيون إلى قتلة مأجورين، فكان الأمير السلجوقى يستأجرهم للقضاء على خصومه، وفشلت كل جهود الدولة السلجوقية للقضاء عليهم بسبب مناعة موقعهم، فكانت الجيوش التى تذهب لمحاربتهم تعود مهزومة، حتى

اضطر السلطان «سنجر» إلى مهادنتهم وبعث إليهم وفداً للتفاوض والمصالحة، وذلك بعد أن استيقظ من نومه يومًا فوجد خنجراً مغروسًا فى وسادته. والخنجر هو الرمز الإرهابى لفرقة الحشاشين.

وعندما عاد وفد المفاوضة السلجوقى إلى سيدهم، أخذ كل منهم يروى بعض ما أذهله عن سطوة الحسن الصباح على أتباعه، من ذلك أنه أمر أحد أتباعه أن يغمد خنجراً فى صدره ليقتل نفسه، فامتثل للأمر دون تردد وأنه طلب من فدائى أن يلقى بنفسه من نافذة الحصن إلى الهاوية، ففعل ما أمر به فى الحال، وهوى إلى القاع وتناثرت أشلاؤه، ولم يكد السلطان يسمع هذه الحكايات حتى دب الرعب فى قلبه وبادر إلى مصالحة الصباح بعد ثلاثين عاما من الحرب اليائسة.

ولم يغفل الحسن الصباح عن الانتقام من الخلفاء الفاطميين فى مصر، فبعث بعض أتباعه فقتلوا الخليفة (الآمر) بن المستعلى، ومعه العديد من الشخصيات البارزة، مما أدى إلى زعزعة الحكم الفاطمى فى مصر والذى انتهى بسقوط الدولة الفاطمية على يد البطل صلاح الدين الأيوبى.

وجه آخر للحسن الصباح:

وللحسن الصباح وجه آخر يناقض صورته الإرهابية الملطخة بالدماء، فقد كان مشهوداً له بالزهد والتقشف والانقطاع للعبادة. يقول الدكتور محمد كامل حسين إن الحسن الصباح عاش متصوفا زاهدا متعبداً، فكان مثالا للرجل المنصرف إلى العبادة مع ما كان عليه

من تعطش إلى سفك الدماء وقتل كل من يخالفه، وامتدت به الحياة إلى سن التسعين وكلها ملوثة بالدماء حتى بلغت به شراهته لسفك الدماء مبلغًا كبيرًا لدرجة أنه قتل ولديه وادّعى أمام أتباعه أنه قتلهما غيرة على الدين والعقيدة، وزعم أنه قتل ابنه الأكبر لأنه اشترك مع آخرين في قتل شيخ من مشايخ البلاد المجاورة، وقتل ابنه الثانى لأنه شرب الخمر، وتوفى الحسن الصباح سنة ٥١٨هـ بعد أن جاوز التسعين، صرف منها سبعين عاما فى تأسيس دولته الإسماعيلية التى طبعها بالطابع الدموى الذى جعل لها هذه الشهرة الكبيرة فى الشرق والغرب، ولم تتحطم هذه الدولة الإرهابية إلا على يد سفاح آخر لا يقل إجرامًا عن زعيم دولة الحشاشين، وأعنى به السفاح المغولى «هولاكو» أثناء حملته على إيران سنة ٦٥١هـ، فاستولى على جميع قلاع وحصون الإسماعيلية وكانت تبلغ الأربعين حصنًا، دُكت كلها إلى الأرض بعد أن هرب منها سكانها تاركين كنوزهم نهبًا للمغول، ثم أخذ المغول بعد ذلك فى تتبع الإسماعيلية فكانوا يقتلون كل إسماعيلى يقابلونه، وبذلك انتهت أسطورة دولة الحشاشين التى لم تخلف فى صفحات التاريخ سوى الرعب والفزع والذكريات السوداء.

الخليفة فى المقطف

بعد وفاة الخليفة الفاطمى «المستنصر» عام ٤٨٧هـ تعرضت الحركة الإسماعيلية إلى سلسلة من الانشقاقات وتحولت إلى عدد من الفرق والجماعات لا تزال موجودة حتى الآن، وأشهرها فى عصرنا الحالى فرقة «الأغاخانية» التى بدأت من إيران ثم الهند، ويتزعمها «أغاخان»، وهم يؤمنون بإمامة «نزار» ابن المستنصر الذى أطاح به انقلاب القصر حيث حل محله أخوه «المستعلى» بتدبير من جده بدر الجمالى وخاله الوزير الأفضل، وإذا كان أتباع المستعلى قد انقرضوا من مصر مع زوال الدولة الفاطمية عام ٥٦٧هـ على يد البطل صلاح الدين الأيوبى، إلا أن بقاياهم لا تزال ماثلة فى طائفة «البُهرة» الذين عادوا إلى مصر منذ ربع قرن وقاموا بتجديد مسجد الحاكم بأمر الله ومسجد الأقمر وصنعوا مقصورة من الذهب لضريح الإمام الحسين وأخرى من الفضة للسيدة زينب، وتراهم منتشرين فى شارع المعز لدين الله فى سراويلهم البيضاء يمارسون تجارة المعدات الكهربائية وأدوات البناء وهى أحب أنواع التجارة إليهم، وبالمناسبة: فإن كلمة «البُهرة» بضم الباء هندية قديمة تعنى التاجر، ويشتهرون بالثراء العريض.

وقد أخذ الهنود مذهب «المستعلية» من اليمن وليس من مصر، وظلت المستعلية تحكم اليمن قرونا طويلة بعد زوالها من مصر ثم تسربت إلى الهند عن طريق خطوط التجارة الملاحية التى كانت منتعشة بين اليمن وسواحل الهند المطلة على بحر العرب، أما كيف انتشرت الدعوة الفاطمية فى اليمن فتلك قصة قديمة تعود إلى نشأة الدعوة فى المغرب على أكتاف عدد من الدعاة اليمنيين أشهرهم أبو عبد الله الشيعى الذى أقام دعائم الفاطمية فى إفريقية (تونس) ومهد لظهور عبيد الله المهدى أول الخلفاء الفاطميين. وفى عهد الخليفة الرابع - المعز لدين الله - انتقلت إلى مصر وتوسعت رقعتها وبسطت نفوذها على الشام واليمن وصارت ندا للدولة العباسية. وقامت فى اليمن حكومات محلية تدين بالولاء للخليفة الفاطمى فى مصر، وتدعو له على المنابر، وتعتنق المذهب الإسماعيلى وأشهر هذه الأسر اليمنية الحاكمة: الأسرة الصليحية بزعامة «على الصليحى» الذى قدم إلى مصر وأعلن ولاءه للخليفة المستنصر فأعطاه تفويضًا بحكم اليمن وأغدق عليه مجموعة من ألقاب الشرف منها «الأمير الأجل مشرق المعالى تاج الدولة سيف الإمام المظفر فى الدين نظام المؤمنين» ومنها «منتخب الدولة وصفوتها ذو المجدين، منجب الدولة وغرسها ذو السيفين، نجيب الدولة وصنيعتها ذو الفضلين».

وعاش على الصليحى يعمل على تدعيم الدولة الفاطمية فى اليمن، حتى أغتيل وخلفه ابنه أحمد الصليحى فسار سيرة أبيه فى الولاء للدعوة الإسماعيلية، وأغدق عليه المستنصر نفس الألقاب التى منحها لأبيه وخلع عليه لقب «المكرم» ولكن الصعاب أحاطت به

بسبب تمرد بعض القبائل اليمنية التى لم تألف الخضوع لسلطة حكومة مركزية، وكان الخليفة المستنصر يتابع باهتمام ما يجرى فى اليمن ويساند «المكرم» فى حروبه ضد المتمردين حتى انتصر عليهم وأعاد الأمن إلى البلاد. فلما مات تولت الحكم زوجته الملكة الحرة «أروى» ولكنها قوبلت بعاصفة عنيفة من جانب أحد الدعاة الفاطميين واسمه «سبأ» الذى عرض عليها الزواج ولكنها رفضت، فلجأ سبأ إلى الخليفة المستنصر يوسطه فى هذا الزواج الذى سيحقن الدماء، فكتب الخليفة إلى السيدة أروى رسالة يأمرها بالزواج من سبأ ويقول فيها: «وقد زوجك مولانا أمير المؤمنين من الراعى الأوحد المنصور المظفر عمدة الخلافة أمير الأمراء أبى حمير «سبأ» بن أحمد، على ما حضر من المال، وهو مائة ألف دينار عينا، وخمسون ألفا أصنافا من تحف وألطاف». ولم يسع السيدة الحرة إلا أن تمتثل لأمر الخليفة الفاطمى وتتزوج بمن تكرهه.

الإمام فى مقطف:

وظلت الملكة الحرة «أروى» على ولائها للمستنصر حتى وثق بها كل الثقة وعهد إليها تنظيم الدعوة الإسماعيلية فى عمان والهند، وأن تعيّن من قبلها دعاة ينشرون الدعوة فى هذه البلاد، وهذا هو سبب انتشار الدعوة الإسماعيلية فى الهند، فلما مات المستنصر وعلمت بنبأ إمامة «المستعلى» بادرت بالاعتراف به، ورفضت التمرد عليه مثلما فعل الحسن الصباح.

وبقيت الملكة الحرة على ولائها للمستعلى ومن بعده ابنه «الآمر». ثم جدّت أمور خطيرة وضعت الدعوة الفاطمية فى مهب العواصف حتى ضعف شأنها، وانفرط عقدها، وكان الخليفة «الآمر» هذا من أفسد عباد الله. وكان يهيم غراما بفتاة بدوية أقام لها عشًا خاصًا فى جزيرة الروضة وكان يتسلل إليها تحت جنح الليل، وفى إحدى هذه الجولات هجم عليه رسل الحشاشين وقتلوه دون أن يخلف وريثا. فقفز إلى الخلافة عمه عبد المجيد ولقب نفسه «الحافظ»، ولكن الملكة الحرة «أروى» لم تعترف بإمامته تمسكا بالأحكام الشيعية التى تقصر الإمامة على الأعقاب، ولا تسمح بانتقالها إلى الأشقاء أو الأعمام، وهنا حدث الانشقاق الثانى فى الدعوة الإسماعيلية، عندئذ لجأ دعاة الإسماعيلية إلى طريقتهم فى صنع القصص التى تخدم أغراضهم، فزعموا أن إحدى زوجات الخليفة المقتول «الآمر» كانت حاملا ثم أنها وضعت ولداً ذكراً اسمه «الطيب». وأن أحد الدعاة خاف عليه من أعدائه فاحتفظ به وأخفاه ثم أرسله فى «مقطف» إلى الملكة أروى فى اليمن، فتولت تربيته، وظلت تحكم اليمن باسمه وتنوب عنه فى إدارة شئون الدعوة الإسماعيلية، واتخذت لنفسها لقبا (كفيلة الإمام المستور الطيب بن الآمر)، وبذلك انشقت الفرقة «الطيبية» عن الفرقة «المستعلية» التى استمرت فى مصر تحت إمامة «الحافظ». ودخلت الدعوة فى اليمن طور الغموض حتى لم يعرف المؤرخون أسماء الأئمة من بعد هذا الطيب، وإن كان دعاة هذا المذهب يصطنعون سلسلة من الأئمة ليس لهم وجود حقيقى وهذا ما يراه الدكتور محمد كامل حسين الذى يقول:

وفى اعتقادى أن قصة «الطيب» هذه أقرب إلى الأساطير الخيالية منها إلى الواقع التاريخى، فإن أحدا من المؤرخين لم يذكر وجود «الطيب» بن الآمر إلا ما نراه فى كتب الدعاة، أما ما يقال عن وجود سجل وجهه الآمر إلى الملكة الحرة قبل مقتله، فى إنه فى رأيى سجل موضوع قصد به إلباس القصة ثوب الحقيقة حتى يتسنى للصليحيين ومن تبعهم الاعتقاد بحقيقة إمامة «الطيب» والصليحيون فى اليمن هم وحدهم الذين تحدثوا عن الطيب، بينما سكت المؤرخون عنه فلم يذكروا حتى مجرد اسمه فى كتبهم، بل ذهب المؤرخون إلى أن زوجة «الآمر» التى كانت حاملا عند موته وضعت أنثى، ولكن الصليحيين قالوا بل وضعت ذكراً هو «الطيب» ويتساءل الدكتور محمد كامل حسين، ومعه الحق، عن سبب ستره مع أن الدولة كانت دولة الصليحيين، والسلطان فى أيديهم، فلماذا قبلوا أن يدخلوا إمامهم الستر وأن يخفوه ماداموا يدعون له ويدينون بطاعته وإمامته (!!) وإنما يخيل إلىّ أن الصليحيين وضعوا قصة «الآمر» هذه، حتى يتخذوها ذريعة للانفصال عن سلطان الفاطميين الدينى، وأن يستقلوا بالنفوذ الدينى والسياسى معًا، وأوحى دهاء الملكة «أروى» وذكاؤها الشديد وحرصها على أن تجمع فى يدها السلطتين السياسية والدينية إلى أنها كافل الإمام المستور وحجته الكبرى، وسار على نهجه كل داع مطلق فى الدعوة إلى الآن.

انقسام جديد:

وبعد انقراض الدولة الصليحية سنة ٥١١هـ، خمد أتباع الدعوة

الطيبية عن القيام بأى نشاط سياسى، بل ركنوا إلى التجارة وعاشوا فى محيطهم الخاص، واتخذوا التقية ستاراً فلا يظهرون إسماعيليتهم، وقد هيأت التجارة التقليدية بين اليمن والهند فرصة نشر الدعوة الإسماعيلية الطيبية فى الهند، وأقبل جماعة من الهندوس على اعتناق هذه الدعوة حتى كثر عددهم هناك، وعرفت الدعوة بينهم باسم «البهرة» وفى القرن العاشر الهجرى - أى منذ ٤٠٠ سنة حدث انشقاق جديد فى صفوف الطيبية وانقسمت إلى فرقتين: البهرة الداوودية، والبهرة السليمانية، ويرجع هذا الانقسام إلى الخلاف على من يتولى مرتبة الداعى المطلق للطائفة: فالتفت الداوودية حول الداعى قطب شاه داوود، واجتمعت الثانية حول الداعى سليمان بن حسن. وانتقل مركز الداوودية من اليمن إلى الهند ومقره بومباى، ويتمتع داعيها وزعيمها بنفس الصفات التى كان يتمتع بها الأئمة، وله سلطات روحية مطلقة على أتباعه. وهى نفس سلطة الأئمة فى العصور الوسطى. ونستطيع أن ندرك مدى هذه السلطة الروحية للداعى المطلق إذا عرفنا أن طائفة البهرة بفرعيها متعصبون أشد التعصب لمذهبهم وعقيدتهم، ومن ثم حافظوا على تقاليدهم التى ورثوها منذ عهد الصليحيين محافظة تامة، ولا يقبلون تبديلا لتلك التقاليد أو تطويرها مع تطور الزمن، حتى أنك تعرف فى سهولة رجل البهرة من ملابسه ومن لحيته، وتميز المرأة من البهرة فى الطريق من (الحبرة) التى ترتديها والنقاب الكثيف الذى تخفى به وجهها.

الظاهر والباطن:

أما عن عباداتهم فإنهم يتخذون أماكن خاصة لهم للعبادة لا يدخلها غيرهم وأطلقوا عليها اسم «جامع خانة» فهم لا يؤدون فريضة الصلاة فى المساجد مع غيرهم من المسلمين، وذلك إمعانا منهم فى ستر عقائدهم المذهبية، والحرص الشديد على إخفائها عن الناس، مع أنهم - كما يقول الدكتور محمد كامل حسين - شديدو التمسك بفرائض الدين وأركانه وأن عقيدتهم فى «الظاهر» لا تختلف عن عقائد غيرهم من المسلمين، أما عقيدتهم فى «الباطن» فهى بعيدة كل البعد عن عقيدة أهل السنة والجماعة، فهم مثلا يؤدون الصلاة كما يؤديها المسلمون، ويحافظون على حدودها وأركانها كالمسلمين تماما، ولكنهم يقولون إن صلاتهم هذه للإمام الإسماعيلى المستور من نسل «الطيب» بن الآمر. ويذهبون إلى مكة المكرمة لتأدية فريضة الحج فى موسمه شأنهم فى ذلك شأن جميع المسلمين، ولكنهم يقولون إن الكعبة التى يطوف حولها الحجيج هى رمز على «الإمام» ولا ينكر الدكتور كامل حسين فضل طائفة البهرة فى محافظتها على التقاليد الإسماعيلية، إذ استطاع دعاتها أن يحتفظوا بشطر كبير من المؤلفات الدينية والأدبية التى وضعها علماء ودعاة المذهب فى مصر فى العصر الفاطمى، بينما ضاعت هذه الكتب من مصر نفسها، وكذلك حافظوا على الكتب التى وضعها دعاة فارس واليمن فى العصر الفاطمى، فلولا احتفاظ دعاة البهرة بهذه الكتب الفاطمية لما عرفنا شيئًا عن حقيقة الدعوة الإسماعيلية إلا عن طريق كتب أعداء الإسماعيلية، ولكن مما يؤسف له حقا أن محافظتهم على التقاليد والقول بستر

عقيدتهم أدى بهم إلى عدم السماح لأحد الوصول إلى الكتب التى يقدسونها حتى أنهم غالوا فى ستر هذه الكتب، فلم يكن الدعاة أنفسهم يسمحون لأبناء الطائفة بالاطلاع على هذه الكتب، ومع ذلك تسرب بعضها إلى مكتبات مصر وأوروبا وأمريكا، وقام بعض الباحثين بنشر هذه المخطوطات ومن هنا تيسر للناس الوقوف على أسرار عقيدتهم ومن أهمها أنهم يؤمنون بِالباطن (وهو العبادة العلمية) ولكن يقولون بالظاهر أيضًا (وهو العبادة العملية وتشمل فرائض الدين) وأوجبوا الاعتقاد بالظاهر والباطن معًا، بل كفّرُوا من أعتقد بالباطن دون الظاهر أو بالظاهر دون الباطن، وجاءت نظمهم السياسية تعبيرا عن هذا الازدواج الماثل فى كل شأن من شئون حياتهم العملية والعقيدية، وهم يتفقون مع غيرهم من الفرق الشعبية فى أصول المذهب كالاعتقاد فى عصمة الأئمة، والتقية وإن اختلفوا عنهم فى أمور كثيرة جعلت منهم طائفة مستقلة فى أفكارها وعقائدها.

شاور وضرغام

صراع الديوك

عندما مالت شمس الدولة الفاطمية نحو الغروب، ودخلت آخر أطوار الضعف والانهيار، وقعت البلاد تحت سيطرة وزيرين من أحقر ما عرفت الفاطمية من وزراء السيوف الذين صارت لهم الكلمة العليا حتى أنهم كانوا يختارون الخلفاء من بين أطفال الأسرة المالكة لكى لا يكون لهم حول ولا طول. كان أحد الوزيرين العابثين يستعين على غريمه بجيش الصليبيين، فيبادر الآخر باستدعاء قوات السلطان «نور الدين» حاكم الشام القوى باذلا له الأموال مقابل إعادته إلى كرسى الوزارة، ثم يتنصل من عهوده فلا يجد حرجا من الاستعانة بالجيش الصليبي الذى كان بالأمس يستعديه، وظلت قوات الفريقين تتردد على مصر حتى أصبحت البلاد مسرحا للفوضى والعبث، وانتهت اللعبة الدنيئة بوقوع مصر لقمة طرية فى يد البطل الشاب صلاح الدين الأيوبى. فلم يكتف بقطع دابر الوزيرين بل قضى على الدولة الفاطمية كلها بضربة قاتلة، وأعاد مصر إلى التيار السنى بعد قرنين من حكم الإسماعيليين الشيعة.

أما أخطر الوزيرين فهو: شاور بن مجير السعدى، وينتمى إلى

قبائل البدو المصريين، وكان يزعم أن نسبه ـ السعدى ـ ينتهى إلى السيدة حليمة السعدية مرضعة الرسول ﷺ، وهو أول وزير عربى يغتصب الوزارة فى سلسلة وزراء السيوف بدءاً من بدر الجمالى، الذى فتح الباب أمام بنى جنسه (الأرمن) ليشغلوا هذا المنصب الخطير، وقد ترقى «شاور» فى مناصب الدولة حتى عين واليًا على الصعيد الأعلى، واستطاع خلال سنوات ولايته على الصعيد أن يجند جيشًا من البدو ليكونوا عونًا له فى معركة الصراع على السلطة، ولما وجد شاور أن الوقت قد حان للانقضاض على السلطة، تحرك بقوته من الصعيد عن طريق الواحات. ثم دخل القاهرة فى الثامن والعشرين من المحرم عام ٥٥٨هـ وأطاح بالوزير «العادل رزيك بن طلائع» وهو أرمنى، وجلس على عرش الوزارة فى دار الذهب الكائنة على شط الخليج، وقبض على «رزيك» وأودعه السجن ثم بعث إليه ابنه «طى» فقتله.

حدثت كل هذه التغيرات الهائلة دون إذن أو مرسوم أو حتى علم من الخليفة «العاضد» الذى كان قابعًا فى قصره يحمد الله على نعمة البقاء حيًا بمعزل عن صليل السيوف. وبدأ «شاور» عهده بمصادرة أملاك الوزير السابق وكل من يلوذ به، ويضمها إلى ممتلكاته الخاصة.. ولكنه لم يهنأ طويلا بهذا الملك العريض.. فقد برز له من صفوف الطامعين غريمه اللدود: أبو الأشبال «ضرغام» بن عامر بن سوار اللخمى، وكان «ضرغام» من أمراء الدولة وكبار قوادها، ويتزعم فرقة من الأمراء يقال لهم «البرقية» واستعظم «ضرغام» أن يفعل «شاور» فعلته ويستولى على السلطة دونه، فتحرك بقواته نحو القاهرة، وما أن علم «شاور» بقرب وصول قوات ضرغام إلى

القاهرة، حتى ولى الأدبار . . وفر إلى الشام مستنجداً بحاكمها القوى «نور الدين محمود» الذى كان مهموماً بالاحتلال الصليبى . ويتحين اليوم الذى يحرر فيه بيت المقدس من دنسهم، ويعمل جاهداً على توحيد الشام ومصر فى جبهة واحدة تتمكن من مواجهة الفرنجة وطردهم . وكانت هناك مكاتبات سابقة بين نور الدين، والوزير المصرى السابق طلائع بن رزيك لتوحيد جهودهما، ولكن لم تكتمل بسبب وفاة «طلائع» . فلما ذهب «شاور» إلى نور الدين مستنجداً وجدها فرصة ذهبية لتطويق الإمارات الصليبية بقوات مصر والشام

سباق - إلى مصر

ولكن ما أبعد الشقة بين مقاصد الرجلين . .

كان نور الدين يهدف إلى تدعيم الجبهة الجنوبية (مصر) بقوات من الشام . . أما «شاور» فكان مقصده عونا عسكريًا يعيده إلى السلطة ويثبته على العرش الذى سلبه منه ضرغام . . على أن يتعهد بدفع نفقات الحملة وثلث دخل مصر سنويًا، ويتصرف كوكيل لنور الدين .

على أية حال . . تحركت القوات الشامية إلى مصر بصحبة شاور . . وعندئذ سارع ضرغام بالاتصال بملك بيت المقدس «عمورى» مستنجداً به مع تعهد بتنفيذ كل طلباته المالية وعدم النكوص عن تعهداته السابقة .

وكان هناك اتفاق سابق تعهد فيه الوزراء الفاطميون بأن يدفعوا إلى «عمورى» جزية سنوية مقابل امتناعهم عن غزو مصر، ولكن عندما

تولى «ضرغـام» السـلطة بعـد طرد «شـاور» امـتنع عن دفع الجـزية، فتحرك عمورى بقواته الصليبية إلى مصر، فما كان من «ضرغام» إلا أن فتح سدود النيل وقت الفيضان، وأغرق البلاد لإعاقة تقدم القوات الصليبية، واضطر «عمورى» للعودة إلى بيت المقدس وهو يتميز غيظًا من «ضرغام» لامتناعه عن دفع الجزية. . فلما وجد ضرغام أن غريمه «شـاور» قـد لجأ إلى نور الدين وأن جـيشه على وشك الوصـول إلى مصر، لم يجد حرجا فى استرضاء عمورى. . والتعهد بتنفيذ الاتفاق السابق فى مقابل حضور جيش صليبى لنصرته ضد شاور.

وصل جيش نور الدين بقيادة الضابط الكردى أسد الدين شيركوه إلى مـصـر فأطاح بضـرغـام بعد تسـعـة شـهـور فقط من جلوسـه فى السلطة، وعاد «شـاور» إلى مركزه، ولكنه سرعـان ما تنكر لحليفه ونقض اتفاقه معه، بل طلب منه مغادرة البلاد، ولكن «شيركوه» أصر على تنفيذ ما اتفق عليه، وتمركز بقواته فى بلبيس فى انتظار تعليمات من سيده نورالدين.

بعد أن وصلت الأمـور إلى الطريق المسدود. . ماذا يفعل شاور؟ لجأ إلى الصليبيين مستنجداً بهم لإخراج قوات نور الدين من مصر، وحرضهم على سرعة القدوم قبل وصول نجدات من الشام. وتلقف الصليبيون استغاثة شاور بمنتهى السعادة والحبور وسارعوا إلى تلبية طلبه خـشيـة وقـوع مـصـر فى يد نور الدين فـيكون فى ذلك القـضـاء عليهم، وبلغ من لهفـتهم أنهـم لم يعبأوا بتهديد نور الدين لبلادهم ليمنعهم عن المسير، وتوحدت قوات الصليبيين مع قوات شـاور فى محاصرة قوات «شيركوه» فى بلبيس، واستمر الحصار ثلاثة أشهر

حتى اضطروا إلى فك الحصار والعودة إلى فلسطين عندما علموا باستيلاء قوات نور الدين على بعض المدن السورية التى كانت فى حوزتهم. واتفقوا مع شيركوه على جلاء قوات الفريقين عن مصر.

على أسنة رماح العدو:

عادت القوات الشامية والصليبية إلى قواعدها وعيونهم مركزة على مصر بعد أن تبين لهم ما تعانيه من ضعف نتيجة تنافس وزرائها فى الوصول إلى الحكم ولو على أسنة رماح الأعداء.

يقول أبو شامة فى (عيون الروضتين): وشاهد أسد الدين البلاد، وعرف حالها وعرف أنها بلاد بغير رجال، تمشى الأمور فيها بمجرد الإيهام والمحال. فأقام بالشام مدبرا لأمره، مفكراً فى كيفية رجوعه إلى البلاد المصرية محدثًا بذلك نفسه، مقدراً لقواعد ذلك مع نور الدين، وفى سنة اثنتين وستين وخمسمائه عاد أسد الدين شيركوه إلى مصر، وسير معه نور الدين جماعة من الأمراء وابن أخيه «صلاح الدين»، وهذه هى المرة الثانية، وكان أسد الدين قد اشتد طمعه فى البلاد لما دخلها وكشفها، فكان أبداً يتحدث بالعزم على العود إليها، وبلغ ذلك شاور، فقرر مع الفرنج العود إليه ليساعدوه، فوصلوا بعد أن وصلها أسد الدين، وتصرف فى البلاد الغربية، وأقام بها نيفا وخمسين يوما، وسار نحو الصعيد بعسكره، وسارت العساكر المصرية (قوات شاور) والفرنج وراءهم فثبتوا لهم، فوقعت الوقعة بموضع يعرف بالبابين فانهزم المصريون والفرنج، وهذه الوقعة من عجيب ما يؤرخ، وذلك؛ أن ألفى فارس بعيدة عن بلادها، هزمت

عساكر مصر فى بلادها، وفرنج الساحل، ثم سار أسد الدين إلى الإسكندرية وجبى ما فى طريقها من القرايا والسواد من الأموال، وسلم الإسكندرية أهلها إليه، فاستناب بها «صلاح الدين»، وعاد هو إلى الصعيد وتملكه، وجبى خراجه وأمواله، وأقام به حتى صام شهر رمضان، ثم تجمع الفرنج والمصريون، وحصروا الإسكندرية، فسار أسد الدين نحوهم، فجاءته رسل المصريين والفرنج يطلبون الصلح، وبذلوا له خمسين ألف دينار سوى ما آخذوه من البلاد، فأجابهم، وشرط أن الفرنج لا يقيمون بمصر، ولا يتسلمون منها قرية واحدة، وعاد إلى الشام، وأنفذ «الكامل» بن شاور مالاً جزيلا إلى نور الدين، وسأله إصلاح الحال وجمع كلمة الإسلام، وبذل مالاً يحمله كل سنة، فبقى الأمر على ذلك إلى أن قصد الفرنج مصر لتملكها.

نصر الإسلام .. فقط:

حاول شيركوه أثناء وجوده بمصر التحالف مع «شاور» ضد الصليبيين الموجودين فى مصر والانقضاض عليهم، وبذلك يسهل على المسلمين القضاء نهائياً على القوى الصليبية فى فلسطين والشام، وذكر أسد الدين فى رسالته إلى شاور «وما أومل منك إلا نصر الإسلام فقط، وهو أن العدو قد حصل بهذه البلاد، والنجدة بعيدة عنه، وأريد أن نجتمع أنا وأنت عليه، ونتنهز هذه الفرصة التى قد أمكنت، والغنيمة التى قد كتبت، فنستأصل شأفته، ونخمد ثائرته، وما أظن أنه يعود يتفق للإسلام مثل هذه الغنيمة أبداً».

ولكن شاور الذى لم يكن يعنيه سوى منصب الوزارة فقط، كان

يخشى كما يقول الدكتور حمدى المناوى من أسد الدين أكثر من خشيته من الفرنج، فلم يستجب لدعوته، بل أمر بقتل رسوله ـ رغم حصانة الرسل ـ وأطلع «عمورى» على عرض شيركوه وبذلك أضاع شاور بغبائه وأنانيته تلك الفرصة التى لا تعوض.

وتتكلم المصادر الإفرنجية المعاصرة للصليبيين عن سفارة بعث بها الملك عمورى إلى الخليفة العاضد ووزيره شاور لعقد اتفاقية يتعهد فيها الصليبيون بحماية مصر من تهديدات نور الدين، مقابل أن تدفع له مصر ٢٠٠ ألف دينار معجلة ومثلها مؤجلة، إلا أن المؤرخ الأيوبى «ابن واصل» يذكر أن الكامل بن شاور تأذى من هذا العرض وبعث إلى نور الدين يعلن ولاءه ومحبته والدخول فى طاعته، واستعداده لأن يجمع بمصر الكلمة على طاعته، وبذل له مالا يحمله كل سنة . .

كان الابن يعلو فى تفكيره إلى مستوى المحنة التى تتعرض لها مصر والشام جانب الصليبين، بينما الأب الغادر يتواطأ مع الإفرنج، وبالفعل اعتزم الصليبيون العودة إلى غزو مصر، ويذكر ابن واصل أن الفرقة الصليبية التى تركوها على أبواب القاهرة عاملوا المصريين معاملة سيّئة، وأرسلوا إلى عمورى يغرونه بفتح مصر لما تبين لهم من ضعفها، كما بعث بعض الأمراء المصريين المعادين لشاور يستحثون عمورى على القدوم لمصر، واستجاب «عمورى» للطلب. فجاء على رأس جيشه واحتل بلبيس ثم حاصر القاهرة. ولكى يعوق شاور تقدم الصليبيين نحو الفسطاط أمر بإخلاء الفسطاط وحرقها. ويقول المقريزى: بعث شاور إلى مصر (الفسطاط) بعشرين ألف قارورة نفط وعشرة آلاف مشعل نار فرقت فيها، فارتفع لهب النار ودخان الحريق إلى السماء،

فصار منظراً مهولا ، واستمرت النار تأتى على مساكن مصر لتمام أربعة وخمسين يومًا، ومن ثم تحولت الفسطاط إلى الأطلال المعروفة الآن بكيمان مصر . . فلما حدث الحريق رحل «عمورى» من بركة الجيش ، ونزل بظاهر القاهرة وقاتل أهلها قتالا عنيفا .

نهاية الدولة الفاطمية:

وما أن وصلت استغاثات المصريين إلى نور الدين حتى أمر شيركوه بالتوجه إلى مصر، وأسرع شيركوه الذى كان يتمنى هذه الفرصة، فوصل إلى مصر فى ربيع الآخر سنة ٥٦٤ فاضطر الفرنج إلى الجلاء عن البلاد. وبذلك حقق نور الدين أمله فى ضم مصر والشام فى جبهة واحدة، واضطر شيركوه إلى قتل شاور، وطاف الجند برأسه فى شوارع القاهرة والناس لا يصدقون أنهم تخلصوا من هذا البلاء. وبذلك أمن شيركوه ألاعيب هذا الرجل الخطير وخيانته وغدره.

يذكر ابن واصل أن شاور كان يعتزم دعوة شيركوه وأصحابه إلى حفل عشاء ثم يقضى عليهم (مثلما فعل «الجمالى» فى مذبحة الجمالية) فلما علم «الكامل» ابن شاور بنبأ المؤامرة نهى أباه عن ارتكابها، وهدده بإبلاغ شيركوه بتفاصيلها، وعندئذ قال الأب إنه إذا لم يبادر بالخلاص من شيركوه فسوف يكون مصيرهم القتل، فرد الابن : إنه خير لنا أن نقتل والبلاد فى أيدى المسلمين من أن نقتل والبلاد فى يد الفرنج، وأنه إذا سمع الفرنج بالقبض على شيركوه بادروا باحتلال مصر، ولن يقبل نور الدين نجدتها بعد قتل رجاله.

وبذلك انطوت آخر صفحة فى تاريخ الدولة الفاطمية، وهى

الصفحة التى تلطخت بالصراع الدموى بين شاور وضرغام، والتى كانت أسوأ ما شهدته مصر من أحداث كانت نتيجتها نهاية الدولة الفاطمية، أو كما يقول المقريزى: إن البلايا والمنايا من حينئذ تتابعت على دولة الخلفاء الفاطميين حتى لم يبق منهم عين تطرف. ويصف الشاعر «عمارة» اليمنى السنوات التى قضاها شاور فى وزارته بأنها «كثيرة الوقائع والنوازل» وأنه فيها «انكشفت صفحاته، وأحرقت لفحاته، وأغرقت نفحاته، وغضه الدهر وعضه، وأوجعه الثكل وأمضه، وبان غمره وثماره وجمره ورماده، ولم يجف من الأنكاد لبده، ولا صفا من الأقذاء ورده، وما هو إلا أن تسلمها بالراحة، وسلمت له الهموم عوضًا عن الراحة».

ويلخص عمارة أحوال مصر فى الهزيع الأخير من ليل الدولة الفاطمية:

«ولم يرب أحد رجال الدولة مثل ما رباهم الصالح بن رزيك.. ولا أفنى أعيانهم مثل ضرغام.. ولا أتلف أموالهم مثل شاور.

وبسقوط الدولة الفاطمية، دخلت البلاد فى عهد جديد، واستطاع البطل الشاب صلاح الدين الأيوبى الذى خلف عمه فى منصب الوزارة، أن يسيطر على الأمور، ويعيد إلى مصر وجهها السنى، كما استطاع أن يصد حملات الصليبيين على دمياط، ثم وحد القوى الإسلامية فى جبهة واحدة، واستطاع ذلك القائد العظيم أن يطيح بالصليبيين، ويسترد بيت المقدس بعد مواقع بطولية خلدت اسمه فى التاريخ.. وانتهت حياة الدولة الفاطمية فى هدوء أو كما يقول ابن الأثير «لم ينتطح فيه عنزان».

عمارة .. شاعر لكل العهود

كان الشاعر «عمارة» اليمنى أكبر شاعر عرفته مصر فى الحقبة الأخيرة من العصر الفاطمى، فشهد التقلبات التى طرأت على نظام الحكم، والصراعات التى دارت بين الوزراء الكبار من أجل النفوذ والسيطرة، ورغم أنه كان فقيها سنيا على مذهب الشافعى، إلا أن هواه ومصالحه دفعت به إلى مصانعه الوزراء الشيعة وعلى رأسهم الوزير القوى (الملك الصالح طلائع بن رُزِّيك) فنسج له أروع قصائده، فلما دالت دولة الفاطميين على يد صلاح الدين الأيوبى، لم يجد «عمارة» فى العهد الجديد ما كان يحظى به فى العهد البائد، وأدى به سوء تقديره لموازين السياسة إلى الاشتراك فى مؤامرة للإطاحة بالعهد الجديد وإعادة الفاطميين إلى الحكم، وانكشفت المؤامرة ولقى الشاعر «عمارة» حتفه مشنوقًا على باب داره المطلة على الخليج.

كان عمارة بن على بن زيدان، يمنيا نشأ فى أسرة ذات سيادة فى جبال اليمن، وفى صباه رحل إلى مدينة «زبيد» لتلقى العلم على شيوخها الشوافع، وهناك زاره أبوه فوجده بلغ فى العلم مبلغا طيبًا، فضلا عن براعته فى قرض الشعر، وعندئذ استحلفه ألا يهجو بشعره

أحداً من المسلمين، وحلف عمارة ولكنه لم ير بقسمه بعد أن طوحت به الرياح إلى مصر، وصار شاعرا للبلاط ومن أهم وظيفته أن يمدح سيده.. وأن يزم خصومه.. وهي وظيفة شعراء البلاط في كل عصر وحين، وكان «عمارة» قد ذهب إلى مكة لأداء الحج، واتصل بأميرها هاشم بن قاسم الحسنى، فلما توسم فيه الكياسة والسياسة أوفده إلى القاهرة برسالة إلى حكامها الفاطميين، وحين مثل أمام الخليفة «الفائز» ووزيره «طلائع» أنشد أمامهما قصيدة طويلة مطلعها:

الحمدُ للعيسِ بعد العزمِ والهمم   حمداً يقومُ بما أوْلَتْ من النعم

ويقول «عمارة» في كتابه (النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية) إن الوزير «طلائع» استحسن القصيدة حتى استعاد إنشادها مرارا، والكبراء في المجلس يذهبون في الاستحسان كل مذهب، ودفع له «طلائع» خمسمائة دينار.. وبعث له الشريفة عمة الخليفة خمسمائة دينار أخرى. قال: وحملت المال معي إلى منزلي، وأطلقت لي من دار الضيافة رسوم لم تطلق لأحد من قبلي، وتنافس الأمراء على دعوتي إلى منازلهم للولائم، واستحضرني «طلائع» للمجالسة، ونظمني في سلك أهل المؤانسة وانثالت عليّ صلاته، وغمرني بره».

وعاد «عمارة» إلى مكة ومنها إلى مسقط رأسه باليمن، ولم تبرح خياله ذكريات الأيام السعيدة التي قضاها في مصر، وما قوبل به من حفاوة وكرم، وأخذ يتحين الفرصة للعودة إليها مرة أخرى ليتخذ منها موطنا ومقاما، وجاءت الفرصة عندما ذهب إلى الحج للمرة الثانية، فكلفه أميرها بحمل رسالة إلى الوزير «طلائع» يعتذر فيها عما تعرض

له الحجاج المصريون من نهب وسلب، وجاء «عمارة» إلى القاهرة وهو ينوى البقاء فيها إلى الأبد، ووجد عند الوزير «طلائع» الملاذ الآمن، والركن الحصين، والصدر الحنون، وصار ملازما له فى مجلسه، وطابت نفسه لما كان يجرى فى مجلس الوزير من أحاديث الأدب والعلم والسياسة، لولا ما كان يصدر عن بعض الحضور من تعريض بصحابة الرسول - ﷺ - جريا على عادة الشيعة فى سب الشيخين أبى بكر وعمر. ذلك أن الوزير «طلائع» كان من أشد المتعصبين لمذهب الشيعة الإمامية، وكان جلساؤه يصانعونه بالتطاول على الصاحبين، ولم يكن ذلك مما يرضى الشاعر «عمارة» الأمر الذى اضطره إلى مقاطعة مجلس الوزير.

يقول عمارة: وكانت تجرى بحضرة الوزير مسائل ومذاكرات يأمرنى بالخوض مع الجماعة فيها، وأنا بمعزل عن ذلك لا أنطق بحرف واحد، حتى جرى من بعض الأمراء الحاضرين فى مجلس السمر من ذكر السلف ما اعتمدت عند ذكره وسماعه قول الله عز وجل ﴿فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ ونهضت فخرجت، فأدركنى الغلمان، فقلت: حصاةٌ يعتادنى وَجَعُها. فتركونى. وانقطعت فى منزلى أياما ثلاثة، ورسوله كل يوم والطبيب معه، ثم ركبت بالنهار فوجدته فى البستان فى خلوة من الجلساء، فاستوحش من غيبتى، وقال: خيرا. فقلت: إنى لم يكن بى وجع، وإنما كرهت ما جرى فى حق السلف وأنا حاضر، فإن أمر السلطان بقطع ذلك.. حضرت، وإلا فلا.. وكان لى فى الأرض سعة، وفى الملوك كثرة، فعجب من هذا وقال: سألتك بالله.. ما الذى تعتقد فى أبى بكر وعمر؟ قلت: أعتقد أنه لولاهما لم يبق الإسلام علينا ولا عليكم. وإنه

ما من مسلم إلا ومحبتهما واجبة عليه، ثم قرأت قول الله تعالى ﴿وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾ فضحك. وكان مرتاضا حصيفا. قد لقى فى ولايته فقهاء السنة وسمع كلامهم.

«طلائع».. مجليدا ضد الفرنج:

إلا أن هذه العادة السيّئة التى سلكها الوزير «طلائع»، لا تقلل من شأنه فى التصدى للصليبيين فى الشام. فقد كان آخر الوزراء الفاطميين الذين حركوا الأسطول والجيش لمحاربة الفرنج فى «صور» وأسر كثيرا منهم، ويذكر الدكتور أيمن فؤاد سيد فى كتابه (الدولة الفاطمية.. تفسير جديد) أن الوزير «طلائع» أدرك أن مصر لا تستطيع بمفردها مواجهة المملكة اللاتينية فى بيت المقدس فأرسل إلى «نور الدين» صاحب دمشق يطلب إليه توحيد جهودهما، وكان رسول «طلائع» فى هذه المهمة الأمير الشاعر «أسامة بن منقذ» الذى تبادل معه مجموعة من القصائد لتسهيل مهمته لدى نور الدين، وخلق نوع من التعاون بين مصر الشيعية والشام السنية ضد الفرنج فى الشام، وتأكيدا لنيته بعث إلى نور الدين بهدية من الأسلحة وغيرها قيمتها ثلاثون ألف دينار، وسبعة ألف دينار ذهبا عونا له على قتال الفرنج، ولما تنبه الفرنجة إلى خطورة هذا التحالف، بعثوا رسولا إلى القاهرة ومعه هدية لطلب الهدنة، ولكن الصالح رفض ذلك، واستمر على مساندة نور الدين، وكان من الطبيعى أن تتآلف المملكتان الإسلاميتان، ولكن اختلاف المذاهب الدينية حال دون ذلك.

وإلى الصالح طلائع يرجع فضل بناء آخر المعالم العمرانية للفاطميين فى القاهرة، وهو الجامع الذى لايزال قائما إلى الآن خارج باب زويلة، وكان «طلائع» يطمح فى تحويل الخلافة الفاطمية فى نسله - كما فعل بدر الجمالى - فاختار أصغر الأمراء الفاطميين وأجلسه على عرش الخلافة وأطلق عليه اسم «العاضد». وزوّجه من ابنته، عسى أن ترزق منه بولد فيجتمع لبنى رُزِّيك الخلافة مع الملك. ولم تقبل نساء الأسرة الفاطمية هذا الإجراء، فدبرت «ست القصور» عمة العاضد مؤامرة لاغتيال الوزير «طلائع» حتى تربص به الغلمان فى دهليز القصر وقتلوه فى ١٩ رمضان سنة ٥٥٦هـ. وكانت آخر كلمات «طلائع» وهو يلفظ آخر أنفاسه، أسفه على أنه لم يعمل على غزو بيت المقدس واستئصال شأفة الفرنج.. وتحذيره ابنه «العادل رزيك» من «شاور» حاكم الصعيد الذى لا يؤمن غدره.

وجاء مصرع الوزير «طلائع»، وابنه من بعده، صدمة للشاعر «عمارة» اليمنى، فأطلق لقريحته العنان لتعبر عما فى نفسه من لوعة وشجن لفقد أعز الأحباب إلى نفسه. وكان مما قال فى مراثيه:

تنكَّدَ بعد الصالحِ الدهرُ فاغتدتْ مجالسُ أيامى وهنَّ غيوبُ

أيجدبُ خدِّى من ربيع مدامعى وربعى من نُعْمى يديه خصيبُ

وإنْ برقتْ سِنِّى لذكر حكايةٍ فإن فؤادى ما حييتُ كئيبُ

يقول الدكتور محمد زغلول سلام فى تأريخه للأدب الفاطمى إن «عمارة» ظل كئيبا بعد مصرع الصالح، وإنْ ضحكت سنه مع من لازم من الوزراء الذين تقلبوا على الوزارة فى هذه المرحلة من تاريخ

الفاطميين، فقد كثر فيها الطامعون، واقتتل الأعوان، واغتال الخدم والأصحاب بعضهم بعضا. . فقد شارك «ضرغام» فى قتل «رزيك». . ثم ظهر «شاور» وقتل ضرغام. ثم جاء صلاح الدين فقتل شاور. واضطر «عمارة» أن يجارى الأحداث. وأن يداهن أحيانا. ولكنه ظل على ولائه للفاطميين، ولطلائع وابنه وعشيره. . وكان وفاؤه سببا فى نهايته المؤلمة.

وفاء منقوص:

ولكن وفاء الشاعر «عمارة» لآل رزيك لم يكن حقيقيا كما يتصور الدكتور زغلول سلام. . ذلك أن «عمارة» لم يكد يعلم بجلوس «شاور» على دست الوزارة حتى هُرع إليه لينشد له قصيدة يتقص فيها من قدر آل رزيك ويغض من شأن لياليهم التى زالت ويعتذر فيها عن تعظيمه لهم. . ومنها قوله:

زالتْ ليالى بنى رُزِّيكَ وانصرمتْ والحمدُ والذمُّ فيها غير منصرمِ

كأن (صالحَهم) يوما و(عادلهم) فى وسط ذا الدَّستِ لم يقعد ولم يقُمِ

كنا نظنُّ وبعضُ الظنِّ مأثمةُ بأن ذلك جمعٌ غير منهزمِ

وما قصدتُ بتعظيمى عِداكَ سوى تعظيمُ شأنِكَ فاعذرنى ولا تَلُمِ

وبالغ «عمارة» فى تعظيم شأن «شاور» حتى جعل منه حارسا أمينا على نصرة الفاطميين الذين أسماهم (آل محمد) وخلع عليه من أوصاف الشجاعة والإقدام ما لا يجود به الزمان على غيره فقال:

ضَجِر الحديدُ من الحديد و«شاوِرٌ» فى نصر آل محمـد لمْ يضْجـرِ

حـلفَ الزمـانُ ليـأتينَّ بمثـلهِ حـنثتْ يمينُك يازمـانُ فكفِّـرِ

ولكن . . بعد أن انتصر «ضرغام» على «شاور» وخلعه من الحكم، حنث عمارة بيمينه . . وانطلق يقول فى ضرغام:

وأحـقّ مـنْ وَزَرَ الخـلافة مـنْ نشا فى حضرة الأكرامِ والإجلالِ

واختصّ بالخلفاء وانكشـفْ له أسـرارُها بقـرائنِ الأحـوال

وتصـرّفَ الوزراءُ عـن آرائـه كتصـرُّفِ الأسـماءِ بالأفعـالِ

ثم ما لبث ضرغام أن لقى مصرعه على يد شاور، وفتح عمارة نافذة بيته فرأى الناس يحملون رأس ضرغام ويطوفون بها الشوارع فهاله المشهد . فأنشد:

أرى حَنَـكَ الوزارةِ صار سيفا يَحـدُّ بحَـدِّهِ صيـدَ الرقابِ

كـأنك رائـدُ البـلوى وإلا بشـيرٌ بالمنيـة والمصـابِ

وعاد شاور إلى السلطة بعد تسعة شهور من إبعاده، ولم يتحرج «عمارة» من مدحه مشيرا إلى فترة الشهور التسعة التى هى مدة الحمل والتى كان نهايتها شهر جمادى . . فقال مخاطبا شاور:

ونزعـتَ مُلككَ من رجالٍ نازعوا فيه وكنـتَ به أحـقَّ وأقعـدا

جذبوا رداءك غاصـبين فلم تزلْ حتى كسـوتَ القومَ أرديةَ الرّدى

تاريـخُ هـذا قلتُـه فى مثـلِهِ يومـا بيـوم، عبـرةً لمن اهتدى

حمـلتْ به الأيامُ تسـعةَ أشـهرٍ حتى جعلْنَ له جُمـادى مولـدا

ثم جاء صلاح الدين الأيوبى ليقضى على هذا العبث، ويقتلع الدولة من جذورها، وكان على «عمارة» أن يستقبل النظام الجديد بما فطر عليه من مديح وإطناب، ولكنه لم يكن صادقا فى مديحه وإطرائه، ربما لأنه لم يجد عند صلاح الدين الأعطيات والمنح التى كان يلقاها من والوزراء الفاطميين حتى أنه ألقى قصيدة أشاد فيها بمناقب صلاح الدين، ولكن المؤرخين الذين أرخوا له - مثل الصفدى - رأى أنها كانت مدحا مطويا على الذم مغلف بالهجاء. . ثم يقول: الذى أظنه وتقضى به ألمعيتى أن هذه القصة كانت من أسباب شنقه، والله أعلم، لأن الملوك لا يخاطبون بمثل هذا الحقد ولا يواجهون بهذه الألفاظ، وهذا الإدلال الذى يؤدى إلى الإذلال. . إلخ والقصيدة طويلة ومليئة بالغمز واللمز. . والرجاء إلى صلاح الدين بأن يرفق بالفاطميين.

ولم يقف عمارة عند حد الرجاء وطلب الصفح عنهم إنما جمح به الطموح إلى إعادة الدولة الفاطمية، فاشترك فى مؤامرة لإعادتهم، ومعه جماعة من ذيول الفاطمية، كاتبوا الفرنج وحرضوهم على غزو مصر وقتل صلاح الدين ولكن أحد المشتركين فى المؤامرة وشى بهم إلى صلاح الدين، فقبض عليهم وعقد مجلسا من الفقهاء لمحاكمتهم فأفتوا بإعدامهم، ومن المفارقات الغريبة ما يرويه «أبو شامة» فى كتابه (الروضتين) أثناء محاكمة «عمارة». فقد مال «القاضى الفاضل» الأديب المعروف، على رأس صلاح الدين متشفعا فى «عمارة» ولكن «عمارة» ظن أنه يغريه بقتله، فقال للسلطان: مولانا. . لا تسمع

منه . . فإنه عدوى(!!) فغضب القاضى الفاضل وغادر المجلس، وعندئذ قال صلاح الدين لعمارة: إنه كان يشفع فيك . . وقد قبلنا سؤالك فيه . . ثم ساقوه ليشنق على باب بيته، فطلب أن يمروا به على بيت القاضى الفاضل واسمه «عبدالرحيم». وكان جالسا على باب بيته، فلما رأى عمارة مخفورا، دخل بيته وأغلق بابه، فصاح عمارة بآخر أشعاره:

عبدالرحيم قد احتجبْ   إن الخلاص من العجب

وكانت تلك نهاية شاعر كبير عصفت به تقلبات السياسة وغدراتها.

المسمار الأخير

تواطؤ الفاطمية مع الصليبية

جاءت الحملة الصليبية الأولى فى ختام القرن الحادى عشر، فدقت آخر مسمار فى نعش الدولة الفاطمية، وتسببت فى ضياع هيبتها، وأسقطت القناع عن وجهها الحقيقى فظهرت نواياها المعادية للإسلام والمسلمين فى العالم السنى، وفقد الفاطميون اعتبارهم الأدبى والمعنوى ليس فقط لأنهم عجزوا عن التصدى للصليبيين، ولكن لأنهم تواطئوا معهم، وشجعوهم على التوغل فى بلاد الشام للقضاء على عدوهم المشترك، وهم الأتراك السلاجقة، وعقد الفاطميون اتفاقا مع الصليبيين لاقتسام الشام بينهما، ولكن الفرنجة خدعوهم وشقوا طريقهم نحو الأماكن المقدسة فى فلسطين وهى الهدف الرئيسى للحملة، وفى يوم الجمعة ١٥ يولية من عام ١٠٩٩ احتل الصليبيون القدس، وارتكبوا المذبحة التى لطخت وجه أوربا إلى الأبد، وذبحوا سبعين ألفا من المسلمين لاذوا بالمسجد الأقصى، بينما وقف الفاطميون يتفرجون، ويشاهدون مدن فلسطين تتساقط واحدة بعد أخرى فى أيدى الدخلاء القادمين من أوربا.

عندما ظهرت طلائع القوات الصليبية فى أكتوبر عام ١٠٩٧ أمام

مدينة أنطاكية فى أقصى الشمال السورى اكتفوا بحصارها بعد أن ظهرت لهم مناعة حصونها، وراح حاكمها التركمانى «ياغى سيان» يستغيث ويستنجد بحكام الدول والإمارات الإسلامية لفك الحصار، وإنقاذ المدينة من الوقوع فى أيدى الصليبيين، وبلغت الاستغاثة الديار المصرية وهى يومئذ تحت خلافة «المستعلى» ووزيره صاحب الأمر والنهى هو فى نفس الوقت خاله «الأفضل شاهنشاه» ابن أمير الجيوش بدر الجمالى، وبدلا من أن يرسل «الأفضل» تجريدة عسكرية للمشاركة فى طرد الصليبيين، بعث بسفارة دبلوماسيةمحملة بالهدايا والنفائس إلى قادة الحملة الصليبية تعبيرا عن مشاعر الود، ومع السفارة عرض بأن يقتسم الطرفان بلاد الشام، فيكون للصليبيين شمالها، وللفاطميين جنوبها بما فيها فلسطين وبيت المقدس وتلقى الصليبيون السفارة بالمودة والترحيب، وعاد الوفد الفاطمى إلى القاهرة مصحوبا بوفد صليبى ليرد التحية بأحسن منها، أما عن العرض الفاطمى باقتسام الشام، فإن الصليبيين لم يرفضوه ولم يقبلوه، وتركوا البت فيه لمجرى الأحداث التى سوف تقع، مما يعطيك فكرة عن مهارة الصليبيين فى المناورة والتمويه والخداع. فهم لم يلتزموا بشىء يعوقهم عن الوصول إلى هدفهم الأخير، الذى من أجله غادروا ديارهم فى غرب أوربا، وتحملوا المشاق والضنك والجوع طوال رحلتهم المضنية، وهو الوصول إلى الأماكن المقدسة فى فلسطين.

* لم يفطن الفاطميون إلى حقيقة الحركة الصليبية، وظنوا أن هدفها مقصور على استرداد المدن الشامية التى كانت فى حوزة الدولة

البيزنطية، قبل أن يستولى عليها الأتراك السلاجقة. وغاب عن وعيهم الأهداف الصريحة التى أعلنها البابا «أوربان» قبل عامين، ودعا فيها المسيحيين فى كل أنحاء أوروبا إلى حرب مقدسة تحت شعار الصليب لاستخلاص الأماكن المسيحية من أيدى المسلمين.

* فهل كان الفاطميون على هذه الدرجة من السذاجة والغفلة عن مرامى الحركة الصليبية؟ أم أنهم كانوا يدكونها، ولم يجدوا حرجًا فى قبولها طالما أنها ستؤدى إلى تصفية عددهم المشترك وهم المسلمون السنيون فى الشام، ولا يضيرهم أن تخلص الشام إلى الصليبيين، فذلك أفضل عندهم من أن تظل فى أيدى الأتراك المسلمين وهو يتفق مع نظرتهم المذهبية الضيقة (!!).

إدانة صريحة:

المؤرخون القدامى كانوا من الشجاعة بحيث أدانوا الفاطميين، ووجهوا إليهم اتهامًا صريحًا بالتواطؤ مع الصليبيين، بل دعوتهم للقدوم إلى الديار الإسلامية لتحقيق ما عجزوا هم عن تحقيقه. فالمؤرخ «ابن الأثير» فى كتابه «الكامل» لم يتردد عن اتهام السلاجقة، فذكر فى حوادث ٤٩٠هـ: أن أصحاب مصر الفاطميين لما رأوا إمرة الدولة السلجوقية، وتمكنها، واستيلاءها على بلاد الشام إلى غزة، ولم يبق بينهم وبين مصر ولاية أخرى تمنعهم من دخول مصر: خافوا. فأرسلوا إلى الفرنج يدعونهم إلى الخروج إلى الشام ليملكوها، ويكونوا بينهم وبين المسلمين.

أما المؤرخ المصرى جمال الدين أبو المحاسن ابن تغرى بردى فيبدى تعجبه من موقف الفاطميين السلبى من الغزو الصليبى، كما يبدى حيرته من عدم مشاركتهم القوى الإسلامية التى نهضت للدفاع عن إنطاكية، فيقول فى (النجوم الزاهرة):

ولم ينهض الأفضل بإخراج العساكر المصرية، وما أدرى ما كان السبب فى عدم إخراجه مع قدرته على المال والرجال، ثم يسترسل فى وصف سوء حال الصليبيين عندما زحفوا على الشام، وكيف أن المسلمين فى العراق والشام حاولوا صدهم «كل ذلك وعساكر مصر لم تتهيأ للخروج».

وملحوظة أبى المحاسن فى محلها، فقد كان موقف الصليبيين أثناء حصار إنطاكية فى غاية السوء، وتعرضوا للمجاعة والأمراض، وتخلى «الكسيوس كومنين» إمبراطور الدولة البيزنطية عن مدهم بالغذاء والسلاح حتى اضطر بعضهم إلى العودة من حيث جاءوا، وكان من الممكن تصفية هذه الحملة الأولى لو توفرت لها المواجهة الجدية، ولكن أمراء الشام دب بينهم الخلاف، واتخذ حكام مصر الفاطميون موقف المتفرج، بل الشامت المغتبط لما يجرى فى شمال الشام، ظنًا منهم بأن النتيجة ستكون فى صالحهم، وفى ذلك يقول الدكتور سعيد عاشور عميد مؤرخى العصور الوسطى: الحقيقة أن الفاطميين لم يفهموا الحركة الصليبية على حقيقتها، وانتهزوا فرصة ما حل بالسلاجقة فى شمال الشام ليستردوا فلسطين وبيت المقدس منهم، وتحقيق مكاسب سريعة على حساب السلاجقة والبيزنطيين والصليبيين جميعًا، وليس أدل على صحة هذا الرأى من أن الفاطميين

انتهزوا فرصة الارتباك الذى ساد الديار الشامية، وبعث «الأفضل» بحملة عسكرية استولت على بيت المقدس من الأتراك السلاجقة.

وبعبارة أخرى: لم يجد الفاطميون فى الانتصارات التى أحرزها الصليبيون فى آسيا الصغرى وإنطاكية كارثة عامة حلت بالمسلمين، وإنما وجدوا فيها أمنية عزيزة هى تخليص الشرق الأدنى من سيطرة الأتراك السنيين الذى سادوه قرابة نصف قرن من الزمان، استثاروا فيها كراهية العرب والمسلمين جميعًا، الشيعة والسنة على السواء، وهكذا أحس الفاطميون بالسعادة والغبطة فى تلك اللحظات التى وجدوا نفوذ الأتراك قد انهار دون أن يستطيع أمراء الشام منع تقدمهم، وربما اعتقدوا أن ساعة الانتقام من السلاجقة قد أزفت.

روح العداء المذهبية:

* ومن المؤرخين من يرى أن الاتصالات السرية بين الفاطميين والبيزنطيين بدأت قبل أن تصل الحملة الصليبية الأولى إلى مشارف الشام، فيقول الدكتور محمد مصطفى زيادة إن روح العداء المذهبية اشتدت بين الخلافة الفاطمية (الشيعية) والدولة السلجوقية (السنية) وقد رأى الإمبراطور البيزنطى «الكسيوس» استغلال هذا الشقاق، والاتفاق مع الفاطميين على اقتسام الممتلكات السلجوقية فى الشام، وأرسل إلى القاهرة بتفاصيل وخطة الحملة الصليبية الأولى، أى أن اتصالات الفاطميين لم تقتصر على الصليبيين، وإنما شملت كذلك البيزنطيين.

* فهل كان العداء المذهبي - مهما استحكم - يبرر التفريط في أرض العرب ومقدساتهم، لحساب أعداء العرب؟

إن الجواب على السؤال يستوجب إلقاء نظرة عامة سريعة على التطورات التي مرت بها بلاد الشام قبيل وصول الحملة الصليبية الأولى، وبعد أن صار الشام مسرحا للصراع بين الفاطميين والأتراك السلاجقة.

أما عن الفاطميين، فالمعروف أنهم أصحاب دعوة مذهبية باطنية جعلوها محور وجودهم، ومبرر بقائهم، وسخروا كل إمكاناتهم السياسية والعسكرية والدعائية من أجلها وجعلها هدفهم الاستراتيجي وهو الإطاحة بالخلافة العباسية في بغداد، ومن أجل ذلك جاءوا إلى مصر، ثم قفزوا إلى الشام باعتبارها القنطرة التي سوف تحملهم إلى العراق، ولكن حدث أن ظهر الأتراك السلاجقة في الجناح الشرقي للدولة العباسية، وصارت سيوفهم هي الدرع الذي يقي دولة الخلافة من السقوط في أيدي الدعوة الإسماعيلية الفاطمية التي انتشرت في العراق واكتسبت أنصارا عديدين، وباتت قاب قوسين من النجاح.

والسلاجقة فرع هام من قبائل «الغز» التركية التي اعتنقت الإسلام على المذهب السني، وتكونت منهم قوة عسكرية خطيرة استطاعت أن تفرض نفسها على الدولة العباسية، وفي سنة ٤٤٧هـ استطاع زعيمهم السلطان «طغرلبك» أن يدخل بغداد على رأس جيوشه الجرارة. ووجدت فيه دولة الخلافة طوق النجاة من السقوط في مرحلة من أدق المراحل التاريخية، حين أعلن قائد عسكري انتهازي

اسمه «البساسيرى» انتماءه الصريح إلى الدعوة الفاطمية فى مصر، وجعل الخطبة للخليفة «المستنصر» وتبعه خلق كثير، وفى هذه اللحظة الحرجة ظهر الأتراك السلاجقة فحافظوا على هوية الخلافة، وطاردوا الإسماعيلية فى معاقلهم، وقامت بينهما حرب ضروس كان أخطرها حركة الحشاشين بزعامة الحسن الصباح الذى كان يبعث بأتباعه (الفدائيين) من مكمنه فى قلعة (آلموت) لاغتيال الخلفاء والسلاطين والوزراء وكبار القادة العباسيين والسلاجقة، وفى نفس الوقت وقعت المواجهة بين السلاجقة والبيزنطيين بعد أن توغل السلاجقة فى الشام، حتى وصلوا إلى آسيا الصغرى فأقاموا فيها إمارة اشتهرت باسم دولة الروم السلاجقة على حساب الدولة البيزنطية، ومنذئذ صار الشام ميدان الصراع بين القوى الثلاث: السلجوقية والبيزنطية والفاطمية.
وفى عصر السلطان «ألب أرسلان» نجح السلاجقة فى انتزاع بيت المقدس من الفاطميين، وظل فى حوزتهم إلى أن جاءت الحملة الصليبية الأولى، فانتهزها الفاطميون لتصفية حسابهم مع السلاجقة، ودارت الرسائل بين الفاطميين والصليبيين لاقتسام الشام وطرد السلاجقة، وأبدى الصليبيون مهارة سياسية فائقة فى خداع الفاطميين، وتركوهم على عماهم ولم يفصحوا لهم عن نواياهم تجاه فلسطين، وتركوا الأفضل يتقدم على رأس جيشه نحو القدس، وهم يبيتون العزم على احتلالها تحقيقا للغرض الذى جاءوا له.

الأفضل يفيق من سكرته:

* وليس أدل على براعة الصليبيين فى خداع الفاطميين مما حدث

بعد أن صدم الفاطميون فى حركة الجيوش الصليبية، وهى تتوغل فى الشام وتتجه إلى القدس، عندئذ أفاق الأفضل من سكرته، ووجد أنه سيكون وجها لوجه أمام أصدقاء الأمس، وأعداء الغد، ولا مناص من الصدام بينهما، ولكن الأفضل اكتشف الحقيقة المرة بعد فوات الأوان وبينما الصليبيون فى طرابلس - فى طريقهم إلى القدس - بعث إليهم الأفضل بسفارة ثانية محملة بهدايا وأموال هائلة تفوق ما حملته السفارة الأولى، كما أن العرض الجديد يختلف عن العرض السابق، وفحواه أن يمتنع الصليبيون عن دخول القدس على أن يتعهد الفاطميون بالسماح للحجاج المسيحيين بالوصول إلى الأماكن المقدسة فى شكل مجموعات صغيرة تتراوح ما بين مائتين وثلاثمائة حاج، بشرط أن يكونوا منزوعى السلاح، ولكن الصليبيين ردوا عليه بأنهم سيتمكنون من الحج فعلا . . ولكن بمعونة الله . . ودون وصاية من أحد!!

وكان معنى ذلك نشوب الحرب بين الطرفين من أجل القدس، فلما بلغ الصليبيون مدينة الرملة الفلسطينية فى أوائل يونية ١٠٩٩م عقدوا مجلسا بحثوا فيه خطة الحرب، وفى هذا المؤتمر طرحت فكرة العدول عن غزو القدس، والتقدم نحو مصر أولا حتى يأمنوا جانبها، ويضمنوا لأنفسهم حياة مستقرة فى المدينة المقدسة، ولكن أسفرت المناقشة عن استبعاد هذه المغامرة، وإن ظلت كما يقول الدكتور سعيد عاشور مستقرة فى الاستراتيجية الصليبية إلى أن حان موعد تنفيذها فيما بعد - فى العصر الأيوبى - بعد أن تمكن الصليبيون من تثبيت أقدامهم فى فلسطين، وأقاموا مملكة بيت المقدس وإمارات الرها

وطرابلس وإنطاكيـة، وكـان أن تقـرر الزحف على بيت المقـدس مباشرة.

وفي يوم الجمعة ١٥ يوليو١٠٩٩م حدث الهجوم الشامل، ولم يسع الجند المدافعون المسلمون سوى الفرار والاحتماء بالمسجد الأقصى، فتبعهم الصليبيون وفتحوا المسجد وأحدثوا بداخله مذبحة وحشية رهيبة.

* أما حاكم المدينة الفاطمي - واسمه إفتخار الدولة - فقد احتمى مع طائفة من جنده بمحراب داود لمدة ثلاثة أيام، وأطلق الصليبيـون سراحهم وسمحوا لهم بالخروج إلى عسقلان، فكانوا الفئة الوحيدة من مسلمي القدس التي نجت من المذبحة التي قتل فيها سبعين ألفا، فلم يترك الصليبيون مسلما في الطرقات أو البيوت أو المساجد إلا قتلوه، دون أن يفرقوا بين رجل وامرأة وطفل، ولم يرع الصليبيون حرمة المسجد الأقصى فأجهزوا على كل من احتمى به من المسلمين «ومنهم جماعة من أئمة المسلمين وعلمائهم وعبّادهم وزهّادهم، ممن فارق الأوطان، وجاوروا بذلك الموضع الشريف، على حد قول ابن الأثير، ولم يحاول المؤرخون الصليبيون أنفسهم إنكار الحقيقة، فذكر وليم الصوري أن بيت المقدس «تحولت إلى مخاضة واسعة من دماء المسلمين أثارت خوف الغزاة واشمئزازهم» وذكر مؤرخ صليبي آخر حضر تلك المأساة أنه عندما زار الحرم الشريف غداة المذبحة الرهيبة التي أحدثها الصليبيون، لم يستطع أن يشق طريقه وسط أشلاء المسلمين إلا في صعوبة بالغة وإن الدماء بلغت ركبتيه، ولم يكن اليهود أحسن حالا من المسلمين، إذ «جمع اليهود في الكنيسة

وأحرقوها عليهم» وكل هذا مما دفع بعض المؤرخين الأوربيين المحدثين إلى الاعتراف بأن مذبحة يوليو ١٠٩٩م كانت لطخة عار في تاريخ الحملة.

ضياع الفاطميين:

أما الدولة الفاطمية فقد تلقت أخبار النكبة في برود، وظلت تغط في سباتها العميق، وحاول الوزير الأفضل أن يفعل شيئا يمحو به عار التواطؤ الذي أدى إلى الكارثة، فلما بلغه نبأ مسير الصليبيين نحو القدس، جمع رجاله وخرج إلى فلسطين على أمل أن يحول بين الصليبيين وبين دخولهم القدس، ولكنه وصل إلى عسقلان في يوم ٤ أغسطس، أي بعد عشرين يوما من استيلاء الصليبيين على القدس، وهكذا أصيب «الأفضل» بخيبة أمل كبيرة بعد أن اعتقد في وقت ما أن الصليبيين سيقنعون باحتلال شمال سوريا، ويحرصون على صداقة الفاطميين بوصفهم حلفائهم الطبيعيين ضد الأتراك السلاحقة، ولم يسع الأفضل عند وصوله إلى عسقلان سوى «أن يرسل رسولا إلى الفرنج يوبخهم على ما فعلوا» على حد تعبير المؤرخ ابن ميسر، ولم يكن أحق بالتوبيخ من الأفضل نفسه، الذي جمع بين سوء النية، وضعف التدبير.

ومما يرويه «ابن الجوزي» في (مرآة الزمان) أنه بعد وصول الأفضل إلى عسقلان أضاع وقتا ثمينا «ينتظر الأسطول في البحر والعرب)، وعندئذ اكتشف الصليبيون أمره، فأطبقوا عليه بغتة، وحلت الهزيمة بالفاطميين، وتشتت شملهم بعد قليل، حتى أن بعضهم لم يجد مفرا

سوى إلقاء أنفسهم فى اليم حيث غرقوا، فى حين احتمى البعض الآخر بشجر الجميز، فأحرق الصليبيون الشجر حتى هلك من فيه، وأما الوزير الأفضل فقد هرب من عسقلان ومعه بعض رجاله على ظهر سفينة فارين فى البحر إلى مصر وهكذا «تمكنت سيوف الأفرنج من المسلمين، فأتى القتل على الراجل والمطوعة وأهل البلد، وكانوا زهاء عشرة آلاف نفس ونهب العسكر» كما يروى «ابن القلانسى» فى ذيل تاريخ دمشق، وعن هذه المعركة يقول الدكتور سعيد عاشور: وكان النصر المعنوى والأدبى الذى حققه الصليبيون فى عسقلان يفوق بكثير الغنائم المادية التى غنموها، وأدى إلى القضاء على هيبة الفاطميين فلم يجرءوا بعد ذلك على مهاجمة الصليبيين، وقبعوا فى مصر يشاهدون مدن فلسطين وهى تتساقط واحدة بعد أخرى فى أيدى الغزاة.

وإذا كان التواطؤ بين الفاطميين من ناحية، والصليبيين والبيزنطيين من ناحية أخرى، يلقى شبه إجماع تاريخى، إلا أن هذه الحقيقة تلقى معارضة من جانب بعض أساتذة التاريخ منهم الدكتور عبدالمنعم ماجد الذى اجتهد فى كل دراساته التاريخية فى الدفاع عن سياسة الفاطميين وتبرير أعمالهم، فهو يرى أن الاتصالات التى أجراها الفاطميون مع الصليبيين الأوائل إنما كانت تهدف إلى وقف زحفهم بعد أن عجز السلاجقة عن صدهم، وينفى بشدة أن يكون الفاطميون قد فعلوا ذلك بقصد خيانة المسلمين ويقول: لا نصدق ما قيل من أن الفاطميين خانوا المسلمين، وأنهم هم الذين استدعوا الصليبيين إلى الشام كما ذكر ابن الأثير، ويبدى دهشته من أن بعض المؤرخين

الحديثين يؤيدون ذلك، مثل: الدكتور حسين مؤنس، والدكتور سعيد عاشور «الذى يستند فى معظم مصادره إلى مراجع حديثة».

أما الأسس التى أقام عليها الدكتور ماجد نقضه لفكرة تواطؤ الفاطميين، فتتلخص فى أنهم كانوا دائما حماة الإسلام، وأنهم استماتوا فى الدفاع عنه حينما هاجم الروم الشام، ويرى أن ابن الأثير نفسه يشكك فى روايته بدليل أنه يقول فى ختامها «والله أعلم». وحتى لو أيدت المصادر الأوربية وقوع مفاوضات، فإن هذه المفاوضات - فى رأى الدكتور ماجد - يحتمل أن تكون مع الروم وليس مع اللاتين (الفرنجة) وهى عادية فى سياسة الفاطميين الذين سبق لهم عقد معاهدات مع الروم البيزنطيين. أما المفاوضات مع الحملة الصليبية الأولى فإن ماجد يشك فيها - رغم اتفاق المصادر العربية والإفرنجية على وقوعها - ويقول: حتى إذا صحت فإنها كانت فى مصلحة الإسلام، لأنها جعلت المعسكر المسيحى ينقسم على نفسه، ويورد الدكتور ماجد عددا من حوادث الخلافات التى وقعت بين الصليبيين والبيزنطيين. ولكن الباحث التاريخى المحايد لا يجد للفاطميين يدا فيها، لأنها تعود إلى الشكوك التى كانت قائمة بين البيزنطيين والفرنجة ولم تنقطع منذ اجتيازهم ممتلكات الدولة البيزنطية، ولم تنجح السياسة الفاطمية فى استثمار هذه الخلافات لوقف الزحف الصليبى حتى دخلوا القدس.



الفهـــرس

رقم الإيداع ٢٧٢٤ / ٢٠٠٤
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 09 - 1048 - 1

مطابع الشروق

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

الفاطمية

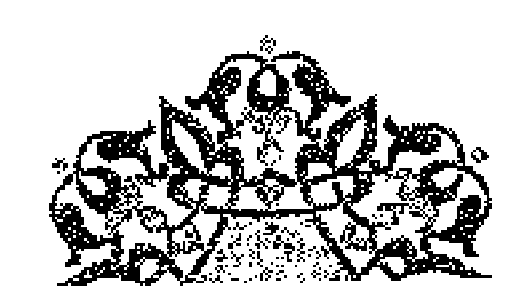
دولة التفاريح والتباريح

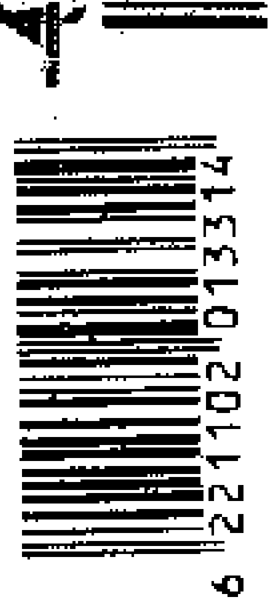
ليس هذا الكتاب سجلا لتاريخ الدولة الفاطمية التى حكمت مصر زهاء قرنين، ولكنه محطات توقفت عندها وأنا أصاحب هذه الدولة من بدايتها إلى نهايتها. وتركت فى الوجدان المصرى آثارا لا تزال ماثلة فى الثقافة الشعبية.

ويغفل الناس عن الدعاوى الدينية والمذهبية التى جاء بها الفاطميون على أسنة الرماح، وفرضوها على الشعب بمقتضى حق الفتح الذى يعطى للدولة الغالبة سلطة تغيير الموروث الثقافى والاجتماعى، وما كان للفاطميين أن ... فى غلبة مصر لولا ضعف النظام الحاكم، وغفلة ... المحكوم.

إنه درس لا ينبغى أن ننساه.

وهو أن التهاون فى الدفاع الوطنى، والاستقلال ... يؤدى إلى ضياع الوطن.. وخضوعه لكل طارق ...





دار الشروق